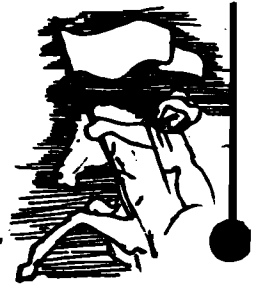


ذُهاةُ العَرَبِ في الإسلام



« ١ »

معاوية بن أبي سفيان التَّوَيْمِيَّة

« هذا كِسرى العرب ! »

[عمر بن الخطاب]

الرأى والشجاعة

الرأى قبل شجاعة الشُّجَعَانِ
هُوَ أَوَّلُ وهى المحلّ الثانى
ولربّما طعنَ الفتى أقرانه
بالرأى قبل تطاعنِ الأقرانِ

[أبو الطيب المتبى]

معاوية بن أبى سفيان بن سطر

(٤٠ - ٦٠ هـ = ٦٦٠ - ٦٨٠ م)

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد مناف القرشى الأموى أمير المؤمنين .

أسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء ، ثمانين سنة (٤٠ - ١٢٢ هـ) .

وهو ينتسب إلى أمية ، وكان «أمية» من سادات قريش فى الجاهلية ؛ وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف ، لهذا لا نعجب إذا تنافس هذان البطنان رئاسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما فى الجاهلية والإسلام . وكان أمية تاجراً كثير المال والعيال ، فكان له عشرة أولاد امتازوا بالشرف والسيادة منهم : حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وكان «حرب بن أمية» قائد قريش يوم الفجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً فى حروبها ضد النبى - ﷺ - ، وهو صاحب العير القادمة من الشام إلى مكة التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى .

وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش «عتبة بن ربيعة» بن عبد شمس جد معاوية لأمه ، فكان أبوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : «لا فى العير ولا فى النفير»^(١) .

ولد قبل الهجرة بخمس عشرة سنة^(٢) ، وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون ، واتخذته الرسول - ﷺ - كاتب رسائله .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد [ج ١ ص ١١٠] .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى د . حسن إبراهيم ج ١

ولما فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ، وبلغ العباس رغبته إلى رسول الله - ﷺ - فأمر منادياً بمكة : « من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وبذلك سوى الرسول - ﷺ - بين بيت أبي سفيان وبيت الله »^(١) ! في وجوب الأمن لمن دخله آنئذ . وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله .

فليس عجيباً إذا أسلم كثير منهم ، وأخذوا يعملون على نشر الإسلام ، ومدّ فتوحاته ، فأبلوا في حروب الردة بلاء حسناً وسار بعضهم إلى الشام ، فاشتهر أمرهم وعظم ذكركم ! ومنهم « يزيد بن أبي سفيان » الذي ولاه « أبو بكر » قيادة أحد الجيوش الأربعة التي أنفذها لفتح الشام .

وولاه عمر « دمشق » كما ولي أخاه « معاوية » ما وليها من البلاد الشامية ، فلما مات يزيد أضاف « عُمر » إلى « معاوية » ما كان لأخيه .

ولما ولي « عثمان » الخلافة ، ولاه الشام كلها ، وظل على ذلك حتى قُتل عثمان ، فاستقل « معاوية » بالشام .

ولما بويع « عليّ » بالمدينة امتنع « معاوية » من المبايعه له متّهماً إياه بالهَوادة في أمر عثمان ، وإيوائه قتلته في جيشه ، وعدم القصاص منهم .

وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة عليّ ؛ مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام ، أو بعبارة أخرى بين المسلمين كافة ! وقصارى القول : أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام .

◀ معاوية يفرض سلطانه بدهائه وسياسته :

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة ، وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى .. فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن عليّ بعد قتل أبيه ، واستخلفوه ؛ إلا أن خلافته لم

(١) المصدر السابق [ج ١] .

ثبت أمام قوة معاوية ، وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوش الحسن أمام جند الشام مما أدى إلى تخلى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بُدّاً من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين .

على أن الدافع الحقيقي الذى حدا بالحسن إلى النزول إنما يرجع - على ما ذهب إليه اليعقوبى - فى تاريخه^(١) - إلى أنه أصبح لا قبيل له بمعاوية وجنده ؛ فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر شورى بين المسلمين يؤلّون عليهم من أحبوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان فى كافة الولايات الإسلامية .

وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ دخل معاوية الكوفة^(٢) حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، ورحل الحسن بعد ذلك إلى المدينة ، ولزم منزله حتى مات^(٣) .

□ عودٌ على بدءٍ !! □

◀ سياسة عثمان - رضى الله عنه - الخارجية والداخلية ، وما كان من المتغيرات على الساحة العربية :

يقول المؤرخون : إنه بعد اثنى عشر عاماً من وفاة النبى - ﷺ - تولى الخلافة عثمان - رضى الله عنه - عقب صاحبه الرسول - ﷺ - : أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وإذا كانت الفتوحات قد بلغت أقصاها فى عهد عمر - رضى الله عنه - ، فإن المحافظة على هذه الفتوح وتثبيت دعائمها كان شغل «عثمان» - رضى الله عنه - الشاغل بعد أن ثار الفُرس ، وحاول الروم استعادة ما أخذه المسلمون منهم من أرض !

وقد نجحت سياسة «عثمان» الخارجية حيث أرسل إلى : الفُرس واليه على

(١) تاريخ اليعقوبى [ج ٢ ص ٢٥٤] .

(٢) المسعودى : مروج الذهب [ج ٢ ص ٣٦] .

(٣) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة الحسن وتاريخ موته على ما جاء فى كتاب البدء والتاريخ للمقدسى .

البصرة : « عبد الله بن عامر » فانتصر عليهم وشتتهم وأخضع البلاد كلها بل تقدم حتى نهر « جيحون » .

أما الروم فقد قام « معاوية بن أوى سفیان » واليه على الشام بردهم إلى ما وراء جبال « طوروس » مستمراً فى تقدمه حتى بلغ « أرمينيا » .

ونجح أسطول المسلمين البحرى فى تأمين الشواطىء الإسلامية ، وألقى على الروم درساً لا ينسى حين حاولوا استعادة الأسكندرية بعد عزل عمرو بن العاص .

حيث تصدى لهم أسطول معاوية ، وأسطول عبد الله بن أبى السرح والى مصر آنثذ فى موقعة « ذات الصوارى » ، وانتصر على الروم انتصاراً ساحقاً تغير بعده الموقف فأصبح أسطول الروم مدافعاً ، واتخذ أسطول المسلمين موقف المهاجم ، فاستولى على جزيرتى : « رودس » و « قبرص » .

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد واجهته صعوبات شتى : على رأسها تشتيت قوى العرب فى الإمبراطورية حيث رابطوا فى أطرافها مدافعين عنها ضد الثورات والأعداء الأجانب .

هذا إلى جانب اختلاف سياسة عثمان عن سياسة عمر ، فقد كان عثمان - رضى الله عنه - ليناً بينما ألف الناس شدة عمر ، وخاصة عندما تقدمت السن بعثمان حيث أصبح على مشارف الثمانين .

وكان عمر قد أبقى سادة قريش بالحجاز تحت رقابته ، أما عثمان فقد سمح لهم بسكنى الأمصار ، وتملك الأرض واستثمار الأموال .

والى جانب هذا وذاك قرب عثمان - رضى الله عنه - أهله وبوأهم المناصب الكبرى ، وخاصة ولاية الأقاليم ، وكان بعض هؤلاء الولاة دون المستوى فأساء إليه بما حُسب عليه ولم يجد عثمان من يحضه النصيح من بطانته ، ويخلص المشورة له كما كان الصحابة ينصحون لعمر وأبى بكر - رضى الله عنهما - ، فأخذت البلاد تغلى بالسخط ، وراح أعداء الأمة يعملون فى الظلام ، ويصطادون فى الماء العكر ، وكان أشد الأمصار معارضة للإدارة الحكومية : « الكوفة » و « البصرة » و « مصر » التى تحركت منها وفود إلى المدينة لتحدث إلى الخليفة

فيما ساءها من أمر ولاتها ، واستقبلهم «عثمان» - رضى الله عنه - ووعدهم خيراً ، وصرفهم إلى بلادهم .

ولكنهم في أثناء عودتهم وجدوا رسولاً يتبعهم متجهاً نحو مصر ، فقبضوا عليه ، فإذا هو يحمل رسالة تحمل خاتم الخليفة بقتل أعضاء الوفد كلهم ، وعلى رأسهم زعيمهم : محمد بن أبى بكر واتضح بعد التحقيق أن «مروان بن الحكم» أحد أقرباء عثمان - رضى الله عنه - من أهل مشورته هو كاتبها ، فطلب الثائرون من عثمان تسليمه لهم فأبى ، فحاصروه أكثر من عشرين يوماً ، وحين شعروا بأن النجدة آتية إليه من بعض الأقاليم هاجموا بيته وقتلوه . وذلك في عام ٦٥٦ م .

وكان مقتل «عثمان» - رضى الله عنه - بداية شر عظيم ، فهذه أول مرة يقتل فيها الخليفة في «شبه ثورة داخلية» ، فمقتل عمر كان فردياً ولسبب خاص . وتلاها أن اختلف الناس في اختيار الخليفة ، وكانوا من قبل قد اتفقوا فيبيعة الخلفاء الثلاثة الأول على الرغم مما كان من تشعب الآراء في أول الأمر !

وعندئذ بايع أغلب أهل المدينة علياً عن طوعية إلا أن معظم الأمصار لم تبايعه .

وقد ازداد الموقف سوءاً حين أمر «علي» بعزل ولاية عثمان على الأقاليم فما كان من هؤلاء الولاة إلا الوقوف ضده ، وهكذا انقسم المسلمون أقساماً ثلاثة :
١ - الثوار الحائقون على سياسة عثمان ، ومنهم المشتركون في قتله ، وهؤلاء أيّدوا علياً إذ رأوا فيه الرجل الذى يستطيع العودة إلى سياسة الشيخين !

٢ - جماعة تضم طلحة والزبير والسيدة عائشة - رضى الله عنها - وهؤلاء - على الرغم من أنهم كانوا من معارضى عثمان - فكذلك عارضوا علياً حيث يرون أنه أخطأ في قبول الخلافة بهذا الشكل وفى هذه الظروف المضطربة !

٣ - ثم الأمويون الذين طالبوا بدم عثمان وهم يهدفون من ذلك إلى نيل الخلافة لأنفسهم .

وإذاً فقد تصدعت الدولة ، وبدأت الحروب الداخلية .

فنشبت المعارك بين عليٍّ وبين حزب طلحة والزبير وعائشة وانتصر فيها عليٌّ في واقعة الجمل قرب البصرة في ٦٥٦ م ثم قامت الحرب بين علي ومعاوية زعيم

الأمويين عندما انتهى عليّ من موقعة الجمل تفرغ لمعاوية والتقى الجمعان في صفين في سنة ٦٥٧ م (٣٧ هـ) .

وحاولوا الوصول إلى حل سلمي ودارت بين الفريقين المناقشات الفقهية زمنًا ليس بالقصير ولكن معاوية أصر كل الإصرار فكانت الحرب !

وتفانى الفريقان في المعركة ، وبدأت جيوش معاوية تنهار ، وكادت الهزيمة تلحق بها لولا أن تداركه «عمر بن العاص» بخدعة ابتكرها :

رفع جُند معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، ومعنى هذا أنهم يريدون وقف القتال ، وتحكيم القرآن في هذه الفتنة الكبرى !

وهنا حدث ما أراده «عمر بن العاص» فقد وقع انقسام خطير بين أنصار «عليّ» أنفسهم حيث رأى أكثرهم أنه ليس لمسلم أن يرفض الدعوة إلى تحكيم القرآن بينما رأت الأقلية أن معاوية قد رفض قبول الحلول السلمية قبل الحرب وهو الذي أجبر الناس على القتال فليس له وقد هُزم أن يطلب الاحتكام إلى ما رفض ! وكان سيدنا عليّ يرى هذا الرأي غير أنه نزل عند رأى الأغلبية .

وانتهى هذا الخلاف بخروج الفريق الثاني على عليّ ولذلك سُموا «الخوارج» ، وأصبحوا أعداءً للفريقين شعارهم : « لا حكم إلا لله ! » .

ويتفق الفريقان على التحكيم ، ويختار عليّ «أبا موسى الأشعري» ، ويختار معاوية «عمر بن العاص» .

ويقال إن الحكّمين بعد مشاورات اتفقا على خلع الرجلين كليهما ، وترك الأمر لجماعة المسلمين تُؤلّي من تشاء غيرهما . وجاء اليوم المعين فتقدم «أبو موسى» الذي عزل عليًا ، ثم تقدم «عمر» فثبّت معاوية .

وهنا قوى جانب معاوية وانفض عن الإمام كثير من أنصاره ، وتراخى عنه الكثيرون ، ودبّ الضعف في جيشه بعد انشغاله بحروبه العديدة مع الخوارج ! وبويع معاوية في الشام وأصبح للدولة الإسلامية خليفتان وما لبث معاوية أن ضم إليه مصر ، ووعد عمرًا بها إن آلت إليه الخلافة مقابل مساعداته ! وقد أصبح عمرو يشكل خطراً حقيقياً على جبهة الإمام بعد انخيازه إلى معاوية .

وبقى سيدنا «على» في الكوفة يحاول جمع شتات هذه الدولة حتى اغتاله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي عام ٦٦١ م - ٤٠ هـ ولم يمتد حكمه فوق الأربعة أعوام إلا قليلاً ، وبذلك خلع الأمر لمعاوية . ونعود إلى معاوية لنعرض صوراً من حياته وسلوكه عندما كان والياً على الشام ..

□ **عمر يتعهد معاوية ويقومه !** □

بيخ بيخ يامعاوية !!

قال ابن المبارك في كتاب الزهد بسنده عن أسلم مولى عمر ؛ قال : قدم علينا معاوية ، وهو أبْضُ الناس^(١) وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر بن الخطاب . وكان عمر ينظر إليه ، فيتعجب منه ، ثم يضع إصبعه على جبينه ، ثم يرفعها عن مثل الشراك^(٢) ، فيقول : « بَيْخُ بَيْخٍ^(٣) » ، إذا نحن خيرُ الناس ، أن جُمِعَ لنا خير الدنيا والآخرة .

فقال معاوية : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، سَأُحَدِّثُكَ ؛ إِنَّا بَارِضُ الْحَمَامَاتِ وَالرِّيفِ .
فقال عمر : سَأُحَدِّثُكَ ، مَا بَكَ إِلَّا طَافُكَ نَفْسُكَ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ ، وَتَصْبُحُكَ حَتَّى تَضْرِبَ الشَّمْسُ مَتْنِيكَ ، وَذَوُو الْحَاجَاتِ وَرَاءَ الْبَابِ !!

قال : قَدْ جِئْنَا ذَا طُوًى ، فَأَخْرَجَ مَعَاوِيَةَ حُلَّةً فَلَبِسَهَا ؛ فَوَجَدَ عُمَرَ مِنْهَا رِيحاً كَأَنَّهُ طِيبٌ ؛ فَقَالَ : يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ فَيُخْرِجُ حَاجِئاً تَفْلَأُ^(٤) ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَعْظَمُ بِلْدَانِ اللَّهِ حَرَمَةً أَخْرَجَ ثَوْبِيهِ كَأَنَّهُمَا كَانَا فِي الطَّيِّبِ فَلَبِسَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّمَا لَبِسْتَهُمَا لِأَدْخُلَ عَلَى عَشِيرَتِي يَا عُمَرُ ؛ وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغْنِي أَذَاكَ هُنَا وَبِالشَّامِ ، فَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّ لَقَدْ عَرَفْتُ الْحَيَاءَ فِي عُمَرَ ! ؛ فَتَزَعُ مَعَاوِيَةُ الثَّوْبَيْنِ ، وَلَبِسَ ثَوْبِيهِ اللَّذِينَ أَحْرَمَ فِيهِمَا^(٥) .

(١) أكثرهم امتلاء ونضارة .

(٢) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

(٣) كلمة مكروية يقال عند الإعجاب !

(٤) التفل : الذي قد ترك استعمال الطيب ، من التفل ، وهو الرمح الكريمة .

(٥) قال ابن حجر في الإصابة : وهذا سند قوى .

□ درس فى التواضع □

ولا عجب فى متابعة عمر لمعاوية فقد تعهده منذ أسلم وانضم إلى كتيبة العمل. أخرج ابن سعد عن عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده قال : دخل « معاوية » على « عمر بن الخطاب » ، وعليه حُلَّة خضراء ، فنظر إليه الصحابة ، فلما رأى ذلك « عمر » قام ومعه الدُّرة فجعل ضرباً بمعاوية ، ومعاوية يقول : الله الله ياأمير المؤمنين ! فيم ! فيم !

فلم يكلمه حتى رجع فجلس فى مجلسه ؛ فقالوا له : لم ضربت الفتى ، وما فى قومك مثله ؟!

فقال : ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغنى إلا خير ، ولكنى رأيته - وأشار بيده - يعنى إلى فوق ، فأردت أن أضع منه !

□ موكب معاوية عند قدوم عمر إلى الشام !! □

وظل عمر لا يكف عن محاولاته مع معاوية ، وغيره ؛ فقد .. كان عمر - رضى الله عنه - يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يُغضى عنها حينما توقف صلاح الولاية على ذلك .

قدم إلى الشام راكباً على « حمار » ، فلتقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم !

فلما رآه معاوية نزل وسلّم عليه بالخلافة ، فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ! ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

أتعبت الرجل ياأمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟! فالتفت إذ ذاك إلى « معاوية » وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟! قال : نعم .

قال : مع شدة احتجاجك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟! قال : نعم . قال : ولِمَ ويحك ؟!

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيسُ العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد ، استخف بنا وهجم علينا .

وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية ، وأنا بُعد عاملك ، فإن استقصتني نقصت ، وإن استزدتني زدت ، وإن استوقفتني وقفت !
فقال عمر : « ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب . وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك »^(١) .

◀ بداية التحرك :

وواصل معاوية مسيرته بعد عمر على طريقته ففى عهد عثمان راح معاوية يعمل على أن يجعل الشام تحت أمره لا تعرف لها حاكماً سواه ، واستطاع فى تلك الفترة أن يكون نفسه ويثبت أقدامه ، ويستعد لمواجهة حاسمة ! عندما بويع «على» - رضى الله عنه - .

فلما قتل عثمان ، وبويع على كان الأوان قد آن ليبدأ دور معاوية على مسرح الأحداث فى الجبهة المناوئة لعلى . ويصور ابن قتيبة بداية ذلك التحرك فى خلال الفتنة بقوله :

« قدم معاوية بن أبى سفيان فى « خلال الفتنة » من « الشام » إلى « المدينة » ، فأتى مجلساً فيه على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم : يامعشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قُتل بين أظهركم لأملأتها عليكم خيلاً ورجالاً .

ثم أقبل على « عمار بن ياسر » ، وكان من أشد الثائرين على عثمان ، فقال له : ياعمار ، إن بالشام مائة ألف فارس ، كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعُبدانهم ، لا يعرفون علياً ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، والزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعداً ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقع فى فتنة تنجلى ، فيقال : هذا قاتل عثمان ،

(١) عبقريّة عمر للعقاد .

وهذا قاتل على»^(١) .

◀ بداية سلسلة من المعارك :

وفي ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة عليّ ، ووجد العذر الذي يّديه ، وهو ولاية دم عثمان ، وأن عليّاً تهاون في الدفاع عن «عثمان» ، وآوى قتلته !

وبدأت سلسلة من المعارك أهمها «صيفين» التي هزم فيها معاوية في ميدان القتال كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، لكنه انتصر في ميدان الخنكة والسياسة والدهاء !

◀ ما بعد معركة صيفين !

وبعد معركة صيفين قامت عدة معارك انتقص فيها ملك خصمه ، وضيق عليه ، وكان «علي» يعاني عناد «خصمه» وقوته ، ويعاني عناد «الخوارج» وقوتهم ، ويعاني في العراق تمرد «أتباعه» ونفاقهم وقعودهم عن نصرته ، كما أشرنا إلى ذلك .

وفي نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة يعلو شأنه السياسي من يوم إلى يوم .

◀ الراحة الكبرى :

واستراح على من هذه المشكلات عندما طعنه «ابن ملجم» طعنة قاتلة ، وخلا الأمر بعدها لمعاوية !!

◀ محاولة سرعان ما انطفأت !

وبعد مقتل «علي» قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن علي ، أو قل إنه قد بويح فعلاً من بعض الشيعة ، ولكن هذا سرعان ما انطفأ في نفس الحسن ، حينما أشيع أن قائده «قيس بن سعد بن عبادة» قد قتل ، فإذا ببعض أهل العراق ينكثون عهده !

(١) الإمامة والسياسة [ج ١ ص ٣١] . الطبعة الأولى سنة ١٩٠٩ م

ولم يكن أمام «الحسن» - رضى الله عنه - إلا أن يقنع بشروط اشتراطها لنفسه ، ولذويه متعهداً بالتنازل عن حقه في الخلافة إذا قبل معاوية هذه الشروط وقد كان معاوية مستعداً - بما وُهب من دهاء - أن يعد بأى شئ نظير تنازل الحسن !

ولذلك يقال : إنه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروطه ، أرسل إليه صحيفة بيضاء موقعة منه ؛ ليكتب فيها ما يشاء من شروط !!

وتم الصلح على هذا الأساس ، وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع !

◀ عام الجماعة :

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثانى سنة ٤١ هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين ، وسمى ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد ، وعاد «معاوية» بعد ذلك إلى «دمشق» حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة إمارته ، وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة ، وبقي بها حتى توفى سنة خمسين أو إحدى وخمسين . ويقال إنه توفى مسموماً !!

وروى أن الحسين حاول معه أن يخبره عن سقاه ، فأجاب : «الله أشد نقمة إن كان الذى أظن ، وإلا فلا يقتل نى برى»^(١) .



(١) السيوطى ؛ تاريخ الخلفاء [ص ١٩٢] .

□ الساحة العريية بين ورع على ودهاء معاوية ! □

ألا ما أبعد الفرق بين ما شهدته الساحة العريية بين «على» و «معاوية» – رضى الله عنهما – فبينما يتجلى الورع والتقوى في مواقف «على» يتراءى لنا دهاء «معاوية» وتدبيره ! فإننا نرى الإمام علياً حيناً لم يجد بُدّاً من لقاء معاوية في معركة «صِفِّين» يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً فيقول : «ألا إنكم مُلَاقُوا القوم غداً .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسَلُّوا الله الصبر والعفو والعافية» .

إنه يتحدثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التى تتطلبها أمثال هذه المناسبة ، فلا يُعدهم ولا يُمنِّهم .

وحتى وهو يكتب إلى «عمرو بن العاص» الذى انحاز إلى صف «معاوية» ، وبات يشكل خطراً حقيقياً على جبهة الإمام إنه لا يُمنِّيه بديناً يُصيبها ، ولا يستميله إلى هوى كما كان يفعل «معاوية» لاكتساب الأنصار !!

بل يناشده تقوى الله فيقول فى كتابه إليه : «من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ..

أما بعد .. فإن الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها ، وصاحبها مقبور فيها ، ومنهُوم عليها .. لم يُصَبَّ منها شيء قط إلا فتحت له حرصاً ، وإلا أدخلت عليه مئونة تزيده رغبة فيها .. ولن يستغنى صاحبها بما ناله عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع !

والسعيد من وُعِظَ بغيره ، فلا تُحْبَطُ أجرك أبا عبد الله ، ولا تُجَارِينُ «معاوية» فى باطله ، فإن «معاوية» غمَصَ الناس^(١) وسَفَهَ الحق !!

لا مساومة .. ولا مداجاة .. ولا التواء .. ولا مكر .. ولا دهاء بل صفاء ونقاء وصدق واستقامة . إن حِدَّةَ ذكائه ، واتِّقَادَ بصيرته لو شاء لأعطياه من الدهاء ما أراد !!

(١) غمَصَ الناس : حفرهم واستصغهم ولم يرههم شيئاً .

ولكنه تخلى عن مواهب الرجل «الداهية» وأحلّ مكانها كلّ مواهب الرجل
«الورع» !! ترى هل يكفى الورع مع الدّهاة ؟!

سؤال يجيب عنه معاوية :

وكثيراً ما نتساءل : بم انتصر معاوية ؟ ويجيب معاوية ، فيقول : أُعِنْتُ عَلَى
عَلِيٍّ بثلاث خصال :

- * كان رجلاً يُظهر سرّه ، وكنت كَثُوماً لسِرِّي .
- * وكان في أخبث جُنْده ، وأشدّه حِلفاً ، وكنت في أطوع جنْد ، وأقله
خِلفاً^(١) ، وخلا بأصحاب الجمل ، فقلت : إن ظفر بهم ، اعتددت بهم عليه .
وإن ظفروا به كانوا أهون عليّ شوكة مِنْهُ .
- * وكنت أَحَبَّ إلى قريش مِنْهُ ، فكم شتيت جامع إلى ومفرق عنه !

◀ حال الأمة عند تولي معاوية :

أشرنا من قبل إلى أن الأمة الإسلامية كانت عند تولي معاوية ثلاثة أحزاب :

١ - شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية ،
وخاصة مصر ؛ وكانوا يرون الخلافة في قريش ، وأن أهل البيت الأموي أولاهم
بها .

٢ - شيعة على بن أبي طالب ؛ وكانوا ببلاد العراق ، وقليل منهم بمصر ،
وهؤلاء يرون الخلافة في قريش أيضاً ، وأن أحق الناس بها على بن أبي طالب
وأولاده من بعده .

٣ - الخوارج ، وهم أعداء الفريقين ، يستحلون دماءهم ، ويرونهم خارجين
على الدين ، وقد كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفوّاً لا فرق في
ذلك بين قرشي وغير قرشي .

(١) وللجاحظ في هذا الشأن تعليل بديع . قال :

العله في عصيان أهل العراق على الأمراء ، وطاعة أهل الشام : أن أهل العراق أهل نظر ، وذو فطن
ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التقيب والبحث ، ومع التقيب والبحث يكون الطعن والقدح
والترجيح بين الرجال ، والتميز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء ، بخلاف أهل الشام .

وقد استمر الكفاح والجلاد بين الأمويين والهاشمين على امتداد الدولة الأموية حتى تغلب الآخرون في النهاية وقامت دولة « بنى العباس » بعد « دولة بنى أمية » التي أقامها معاوية .

فكيف تسنى لمعاوية أن يتغلب على عدوه من شيعة على والخوارج ، وعلى يد من كان إحباط محاولاتهم الدائبة للانقضاض على دولته ؟

لقد كان في العراق داهيتان قاما بالمهمة خير قيام أولهما : المغيرة بن شعبة ومن بعده زياد .. وكان معاوية قطب الرحي ! أو الرأس المدبر وهما الجناحان ! .

□ حسن إدارة معاوية □

عندما تولى الأمر معاوية ، ساعده على حسن إدارة المُلْك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت عندما ضمه الرسول - ﷺ - إلى كُتَّابِهِ يشهد روعة الرسالة ، فتشقف على أتم ما يكون من الكمال .

ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الكفاية والمقدرة ، فولى الشام « عشرين سنة » تدرس خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فأدهش من تولى أمرهم بحلمه ، وعلمه ، وثاقب رأيه ، وفرط دهائه . وكان أبوه من قبل يعالج شئون الناس ، ويتألفهم ، ويعرف ما يصلحهم ، وعنه أخذ معاوية شيئاً في هذا المعنى ، والناشئ في مثل هذه الأعمال يتحنك في الإدارة ، ويكون إماماً في صناعته .

ويقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه : الإسلام والحضارة العربية : « حافظ معاوية على أصول الرسول - ﷺ - والراشدين في الإدارة وما حاد عنها إلا فيما قضيت به المصلحة ، ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بُحْبُوحَةِ الحضارة ؛ وعرف فوائد الشورى ، فما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعي أن يأخذ بآراء أشرف القوم ، وينزل على حكم وفود البلاد »^(١) .

(١) عخطط الشام للأستاذ محمد كرد علي .

وله ولآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع ، تدور بحوثها على سياسة البلاد وحكمها في الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والولايات والشيوخ .

◀ كيف كان يواجه المشكلات ؟

وكان معاوية يفض مشاكله بالحسنى ، يلين للناس ، ويُشفع المجاملة بالإحسان لكل نابه في قومه مُسَوِّد في أهله . ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه . وما كان مع من يظلم رعاياها إلا شديداً .

◀ كيف عمل على استمالة القلوب ؟

كان يستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع ، أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتي هي أحسن .

وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع في الناس وسائله اللينة يعتمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة .

وهو القائل : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني !! ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » .
وقيل له : وكيف ذاك ؟

قال : « كنت إذا مدوها خلّيتها ، وإذا خلّوها مددتها » .

وقال : « إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا » .
ومن المستحيل كمّ الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك ، فما دام الأمر يُفَضُّ بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار في أقوالهم .

ومتى لجئوا إلى القوة ، وأشرفوا على الفتنة انكفأ عليهم بقوته .

وهمته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب .

وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاءة من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا ، أو يحب

فلاناً من خصومه ، أو يُغلظ في بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبيرُ أمرٍ عنده .

ومن أجل توطيد دعائم السياسة التي حصر فيها همه لجأ إلى طرق في الدعوة مؤثرة : فجعل القصّاص أو الوُعّاظ في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته ، ويتفرون من أعدائها .

ولما رأى علياً عند مُنصرفه من صيفين قنت في الصلاة ودعا على من خالفه ، فوقع في نفس معاوية أن تكون المعاملة بالمثل ، وأمر من يقصُّ بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله في عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة .

وظل قصاص العامة يجتمع إليهم النفر من الناس ، يعظونهم ، ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم .

واقضى معاوية فعل عمر بن الخطاب في العلم بأخبار رجاله ورعيته فانظم له أمره .

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاء الطائفة ، فإن رأى منه خيراً ، وما يعجبه ولاء مكة معها ، فإن أحسن الولاية ، وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معها المدينة . فكان إذا ولى رجلاً قيل : هو في أئى جاد ، فإذا ولاء مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولاء المدينة قيل هو قد حذق^(١) .

هذه هو معاوية في إدارته يتجلى لنا دهاؤه وحسن سياسته .

◀ وصيته إلى أحد أقاربه :

كما يتجلى ذلك أيضاً في وصاياه وخطبه : أوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : « لا تبعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تُخَفَّ عليك المؤنة وعلينا منك . وافتح بابك للناس » .

(١) تاريخ الطبرى . والحدق : المهارة ، وخطوات الصليم السابقة كانت تبدأ بحلم حروف الهجاء الأبجدية العربية أبجد هوز .. إلخ ، ثم حفظ القرآن وفهم وتدبره ، ثم مدارسة علومه لكى يصبح حاذقاً .

وقال لآخر : «إذا أعطيت عهداً فف^(١) به . ولا تُخْرِجَنَّ منك أمراً حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُردَّنْ عليك .

ولا تُطمعن أحداً في غير حقه ، ولا تُؤيسنَّ أحداً من حق له » .

لقد وضع معاوية الأساس لحكم مستقر ، فكان لا يستعمل من الولاة إلا من ثبتت كفايته ونجدته في تأييد سلطانه وكانت القواعد التي يضعها لعماله فيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم .

■ معاوية والدنيا !! ■

لما قدم «معاوية» المدينة خطب الناس فقال :

«إن «أبا بكر» - رضى الله عنها - لم يرِدِ الدنيا ولم ترْده !

وأما «عمر» ، فأرادته الدنيا ، ولم يُردها !

وأما «عثمان» فنال منها ، ونالت منه !

وأما «أنا» فمالت لى ، وملتُ بها ..

وأنا ابنها .. ؛ فهى أُمى !

فإن لم تجدونى خيرَكم فأنا خيرَ لكم » .

ثم نزل !!

وهكذا يرى معاوية أن الدنيا مالت به : لكنه هو الآخر مال بها !

وقد يكون هناك فى رأى الآخرين من هو خير منه !

لكنه على كل حال خيرٌ لهم فى تلك الظروف ليجمع شتاتهم ، ويوحد كلمتهم

بعد ذاك الانفلات الذى كان يحتاج إلى مزيد من «الضبط والربط» .

وفى خطبته الآتية تفصيل بعد إجمال .. ومزيد بيان ..

(١) فعل أمر من الوفاء فقول من وفى وف ونلق بها هاء السكت عند الوقوف عليها فقول : فة . ومظها : وقى . قى . فة .

■ خطبة معاوية بالمدينة^(*) ■

في سنة ٤١ هـ خطب معاوية بالمدينة خطبة حمد الله فيها ، وأثنى عليه ثم قال :
«أما بعد ، فإنى - والله - ما وُلِّيتُها بمحبة علمتُها منكم ، ولا مَسْرَّةً
بولائتي ، ولكنى جالدتكم بسيفي هذا مجالدة^(١) .

ولقد رُضْتُ لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة^(٢) ، وأردتها على عمل عمر ،
فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَّات^(٣) عثمان فأبت عَلىَّ .
فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومُشارَبَةٌ جميلة ،
فإن لم تَجِدُونى خيراً ، فإنى خير لكم ولاية .

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له !
وإن لم يكن إلا ما يَسْتَشْفَى به القاتل بلسانه ، فقد جعلت له دَبْرَ أُذنى^(٤) ،
وتحت قدمى .

وإن تجِدُونى أقوم بحكمكم كله ، فاقبلوا منى بعضه : فإن أتاكم منى خير
فاقبلوه ؛ فإن السيل إذا جاد^(٥) يثرى ، وإذا قَلَّ أغنى . وإياكم والفتنة ؛ فإنها تُفسد
المعيشة ، وتكدر النعمة » .

إنه يكشف أهل المدينة بأنه يعلم أنهم يُغضونه ! وبأنه تولى الخلافة على كُرْهِ
منهم !

ثم يعلنهم أنه راود نفسه فى أن يحكمهم على طريقة أبى بكر وعمر وعثمان فأبت
نفسه ذلك ؛ ولهذا سَيَسَّلُك فى الحكم طريقاً جديداً لم يوضحه إلا بأن فيه منفعة
لهم وله .

(*) العهد الفريد [١٤٠/٢] .

(١) جالدتكم : حاربكم .

(٢) رُضْتُ : مرت . وابن أبى قحافة : أبو بكر .

(٣) سنوات حكمه القصار .

(٤) دَبْرَ أُذنى : وراءها ، أى لم أضغ إليه .

(٥) جاد : كثر .

ثم يلين ويستميل بقوله : إنه إن لم يكن خيرهم علماً وفضلاً وديناً ، فإنه خير من يصلح للخلافة ، ويعدّهم أنه لن يحارب من يسأله ، ولن يحفل بالأقاويل والشتائم التي ربما يلوّكها بعضهم ، شفاء لما في نفسه من مَوْجدة . وكأنما يشعر أنهم سيتطلعون إلى منافع كثيرة ، يبتغون منه أن يحققها لهم ، فيقول لهم : « إن لم أقم بحقوقكم كلها ، فأقبلوا مني بعضها ، فإن في هذا البعض غنى » . ثم يحذرهم الفتنة وعواقبها .

ويتجلى دهاء معاوية في هذه الخطبة ففيها من اللين أكثر مما بها من الشدة والتهديد .

■ سياسة ضرب الأحزاب بعضهم ببعض !! ■

جاء في إحدى الوصايا : « يا مولاى ، إذا لم تجعل لشعبك عدوّاً اتخذك عدوّاً له » . تُرى هل كان معاوية يريد أن يشغل الأعداء بعضهم ببعض ؟ . سوف نرى :

فبعد أن صالح الحسن بن على معاوية سار إلى المدينة .

فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ...!

فكتب الحسن له^(١) :

لو آثرتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القبلة لبدأتُ بقتالك ؛ فإنى تركتك لصلاج الأمة وحقن دمائها ! » .

وفى رد الحسن ما يفوّث على معاوية غرضه ، لكنها جولة تعقبها جولات ، والداهية لا يتخلى عن دهائه ، ولا يفارقه دهائهُ حتى الموت !

(١) الكامل لابن الأثير [١٦٣/٣] .

□ كلام له مغزاه !! □

قال المدائني^(*) : قال معاوية يصف قريشاً :

* إذا لم يكن « الهاشمي » جواداً لم يشبه قومه .

* وإذا لم يكن « الخزومي » ثيهاً لم يشبه قومه .

* وإذا لم يكن « الأموي » حليماً لم يشبه قومه .

فبلغ قوله الحسن بن علي - رضى الله عنهما - فقال : ما أحسن ما نظر لنفسه !

أراد أن تجود « بنو هاشم » بأموالها فتفتقر إلى ما في يديه .

وتزهو « بنو مخزوم » على الناس ، فتُبغض وتُشنأ^(١) .

وتحلم « بنو أمية » فتُحب .

□ درس في الدهاء !! □

يسوق الجاحظ في بيانه ثلاث رسائل دارت بين الحسن وزيد ، وبين معاوية وزيد ، وهي تكشف لنا الكثير من أخلاق ثلاثتهم .

[١] من الحسن بن علي إلى زيد

قال : طلب « زيد » رجلاً كان في الأمان الذى سألّه الحسن بن عليّ

لأصحابه ، فكتب فيه الحسن - رضى الله عنه - إلى زيد :

« من الحسن بن علي إلى زيد .

أما بعد .. فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا ، وقد ذكر لي « فلان » أنك

(*) البيان واليمين للجاحظ .

(١) الشنآن : الكراهية .

عرضت له ، فأحبُّ ألا تعرضَ له إلا بخير» .

[٢] من زياد إلى الحسن

فلما أتاه الكتاب ، ولم ينسبه الحسن إلى أبي سفيان ، غضب ، فكتب :
« من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن :

أما بعد .. أتاني كتابك في « فاسق » يؤويه الفساق من شيعتك ، وشيعة
أبيك ، وأيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك ، وإن أحبَّ لحم إلى آكله لحم
أنت منه !!..

[٣] من معاوية إلى زياد

فلما وصل الكتاب « الحسن » وجّه به إلى معاوية فلما قرأه معاوية غضب
وكتب :

« من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان :
أما بعد .. فإن لك رأيين :

رأياً من أبي سفيان ، ورأياً من سُمَيّة !
فأما رأيك من أبي سفيان فحلّم وعزم .
وأما رأيك من « سُمَيّة » فكما يكون رأى مثلها !

وقد كتب إلى الحسن بن عليّ أنك عرّضت لصاحبه !
فلا تعرض له ، فإني لم أجعل لك إليه سبيلاً !
وإن الحسن بن عليّ ممن لا يرمى به الرجّوان^(١) .

والعجب من كتابك إليه أنك لا تنسبه إلى أبيه ، أفأبلى أمه وكلته وهو ابن
فاطمة بنت محمد - ﷺ - ؟! فالآن حين اخترت له .. والسلام ؟! »

(١) الرّجاء : الناحية ولكل بثر رجوان ، ويقال : رمى به الرجوان : طرح في المهالك ، وهو ممن لا يرمى
به الرجوان : أي لا يستهان بشأنه .

■ من أكرم الناس ؟! ■

قيل : تذاكر جلساء معاوية بحضرته يوماً أشراف الناس ، وذوى الوجاهة والبيوت الجليلة - والحسين حاضر - فقال معاوية :

من تعرفون أكرم الناس أباً وأماً ..

وَجَدّاً وَجَدَّةً ..

وَعَمّاً وَعَمَّةً ..

وخالاً وخالةً ؟.

فقالوا : أمير المؤمنين أعلم !

فأخذ بيد الحسين بن علي - رضى الله عنهما - وقال :

هذا أبوه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة ابنة محمد - ﷺ - ، وجده رسول الله - ﷺ - ، وجدته خديجة رضوان الله عليها ، وعمه جعفر بن أبى طالب ، وعمته هالة ابنة أبى طالب ، وخاله القاسم بن رسول الله - ﷺ - ، وخالته زينب ابنة محمد - ﷺ - .

◀ معاوية وقد خلا الجوله بموت الحسن !

يروى ابن قتيبة ما كان من معاوية حين بلغه موت الحسن فيقول :

لما بلغ معاوية خبر موت الحسن أظهر فرحاً وسروراً ، فلما عرف عبد الله بن العباس ذلك دخل على معاوية ، فقال له معاوية :

يا بن عباس ، هلك الحسن !

فأجاب ابن عباس : نعم هلك ! إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاة !

أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك !

ولكن أُصِيبنا به لقد أُصِيبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله - ﷺ - ، فحجبر الله مصيبتة ، وخلف علينا من بعد أحسن الخلف !

وبكى ابن عباس فبكى الحاضرون جميعاً !

قال معاوية : كم ترك بنين صفاراً ؟!

قال ابن عباس : كلنا كان صغيراً فكبر .

قال معاوية : كم له من العمر ؟

فأجاب ابن عباس : الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده !

قال معاوية : أصبحت - يابن عباس - سيد قومك !

قال ابن عباس : أما ما أبقي الله أبا عبد الله الحسين فلا !!

قال معاوية : لله أبوك يابن عباس ! ما استنبأتك إلا وجدتك مستعداً»^(١) .

■ شيء من أدب معاوية وسياسته ■

بين معاوية وأم المؤمنين عائشة

كتب معاوية إلى السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن اكتبى إلى كتاباً توصينى فيه ، ولا تكثرى ، فكتبت إليه : سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من اتمس رضا الله بسخط الناس ، كفاه الله تعالى مؤنة الناس . ومن اتمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس » . والسلام عليك .

[أخرجه الترمذى - كما جاء فى تيسير الوصول]

* وفى مسند أحمد ، وأصله فى مسلم ، عن ابن عباس ؛ قال : قال النبی - ﷺ - : « ادع لى معاوية » . وكان كاتبه .

* وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر قال : « إياكم والفرقة بعدى ؛ فإن فعلم ، فاعلموا أن معاوية بالشام ، فإذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها منكم ؟ ! »
* معاوية فى مرضه :

أنشد معاوية وقد تجلده لعائديه :

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة [ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧] .

وتجلدى للشامتين أربعم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أثبتت أظفارها ألفت كل قيمة لا تنفع

معاوية ومحمد بن الأشعث :

ويفرد الجاحظ فصلاً في البيان والتبيين تحت عنوان :

« شيء من أدب معاوية وسياسته »

فيقول : وأذن معاوية للأحنف بن قيس ، وقد وافى معاوية محمد بن الأشعث ، فوجد^(١) من ذلك محمد بن الأشعث ، وأذن له ، فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية :

« إنا والله ما أذننا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك !

وما رأيت أحداً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها ، وقد فعلت فعل من أحسن من نفسه ذلاً وضعةً ، وإنا كما غللك أموركم غللك تأديتكم ؛ فأريدوا منا ما نريده منكم ، فإنه أبقي لكم ، وإلا قصّرناكم كرهاً ، فكان أشد عليكم وأحف بكم .

◀ **معاوية ورجل من أهل سبأ :**

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

فقال : بل قومك أجهل ! قالوا حين دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الحق ، وأراهم البيئات :

﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . [الأنفال : ٣٢] .

ألا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له !!

معاوية عندما سقطت ثنيتاه^(٢) !

ولما سقطت ثنيتا معاوية لف وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس فقال :

(١) وجد يجد : حزن . ووجد عليه غضب .

(٢) الثنية : إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم لثتان من فوق ولثتان من تحت . وهما فئتان .

لئن ابْتُلِيتُ ، لقد ابْتُلِيَ الصالحون قبلي ، وإني لأرجو أن أكون منهم ! ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلي وما آمنُ أن أكون منهم ! ولئن سقط عضوان مني لما بقي أكثر !

ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيارٌ - تبارك وتعالى - ، فرحم الله عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عتب عليّ بعض خاصتكم لقد كنت حديباً^(١) على عامتكم .

□ بين معاوية والرهاوي □

جاء في أخلاق الملوك من كتاب «التاج» المنسوب إلى الجاحظ ما يأتي :
.. وهكذا يُحكى عن أبي شجرة ، يزيد بن شجرة الرهاوي ، أنه بينا هو يسائر معاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية يحدثه عن يوم خُزاعة ، وبنى مخزوم وقريش ، وكان هذا قبل الهجرة ، وكان يوماً أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع بيعيره على رابية ، ثم أوماً بكُمّيه^(٢) إلى الفريقين ، فانصرفوا .

قال : فبينما معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث ، إذ صك وجه يزيد حجرٌ عائر^(٣) ، فأدماه ، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه ، وهو ما يمسخ وجهه .

فقال معاوية : «لله أنت ! ما ترى ما نزل بك» ؟!

قال : وماذا بك ياأمير المؤمنين ؟

قال : هذا دم وجهك يسيل على ثوبك !

قال : أعتق ما أملك ، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري ، وغطى على قلبي ، فما شعرت بشيء حتى نهني أمير المؤمنين !

(١) الحديب : العطوف .

(٢) وفي رواية ثانية : «بكمه» ، وفي رواية ثالثة «بكفه» .

(٣) ورويت : «غايرو» و «عائرو» ، والعائر : هو ما لا يعرف راميه .

فقال له معاوية : لقد ظلمك من جعلك في أَلِف من العطاء ، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين ، وكُماة^(١) أهل صِفِّين ، فأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وزاده في عطائه ألف درهم ، وجعله بين جلده وثوبه !
ويعلق الجاحظ قائلاً :

فلئن كان «يزيد بن شجرة» خدع معاوية في هذه ، فمعاوية ممن لا يخادع ولا يُجَارَى .

ولئن كان بلغ من بلادة «يزيد بن شجرة» وقلة حِسِّه ما وصف به نفسه ، ما كان يجدير بخمسمائة ألف في عطائه .
وما أظن ذلك خفى عن معاوية ، ولكنه تغافل على معرفة ، لَمَّا وفاه حق رياسته !

ويروى عن معاوية أنه كان يقول : «السُّرُوءُ^(٢) التغافل» .

□ التفاضى عن الصغائر ! □

يقول الجاحظ في كتاب التاج في أخلاق الملوك :
ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح في الملك ، ولا يجرح المال ، ولا يضع من العز ، ويزيد في الأبهة .
وهكذا فعل معاوية بن أبى سفيان في يوم عيد ، وقد قعد للناس ، ووضعت الموائد ، وبَدَرَ الدراهم والدنانير للجوائز والصلّات .
فجاء رجل من الجماعة ، والناس يأكلون ، فقعد على كيس فيه دنانير ، فصاح به الخدم : « تَنَحَّ فليس هذا بموضع لك ! فسمع معاوية ، فقال :
دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس ، فأخذ كيساً ، فوضعه بين بطنه ، وحُجزة سراويله ، وقام !

(١) الكُماة : جمع كَمَى وهو البطل المدجج بالسلاح .

(٢) السُّرُوء : السخاء والمروءة والشرف ومنه قولهم : رجل سَرَى النفس .

فلم يجسر أحد أن يدنو منه .
 فقال الخادم : أصلح الله أمير المؤمنين ! ، إنه قد نقص من المال كيسُ دنانير !
 فقال : أنا صاحبه ، وهو محسوب لك .
 وهذه أخلاق الملوك معروفة في سيرهم وكتبهم ، وإنما يتفقد مثل هذا من هو
 دون الملك ، فأما الملك فيجل عن كل شيء ، ويصغر عنده كل شيء !

■ مسامرة شرحبيل لمعاوية ■

« على من يساير الملوك أن يتكبد ما يقضى أعينهم بكل جهده ، فإن
 مسايرتهم شروطاً يجب على من طلبها أن يستعملها ويتحفظ فيها » [الجاحظ]
 يحكى عن معاوية بن أئى سفيان ، بينا هو يسير ، وشرحبيل بن السمط
 يسايره ، إذ راثت دابة شرحبيل ؛ فقال معاوية : « ياأبا يزيد ! ، إنه يقال :
 إن الهامة^(١) إذا عظمت دلت على وفور الدماغ ، وصحة العقل .
 قال : نعم ياأمير المؤمنين ، إلا هامتى ، فإنها عظيمة ، وعقلي ضعيف ناقص !
 فتبسم معاوية وقال : كيف ذلك ؟ ، والله أنت ! » .
 قال : لإطعامى هذا النائل أمه البارحة مكوكى^(٢) شعير !!
 فضحك معاوية ، وقال : « أفحشت وما كنت فاحشاً ! وحمله على دابة بين
 مراكبه » .



(١) الهامة : الرأس .

(٢) المكوك : مكيال .

□ بعض نظراته الصائبة وأقواله الحكيمة □

المعروف والمنكر :

قال معاوية : معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى . ومُنكر زماننا هذا معروف زمان لم يأت .

◀ تدارك :

قال يوماً على المنبر : يا أهل الشام ؛ ما أنتم بخير من أهل العراق .
ثم ندم فتداركها ؛ فقال : إلا أنكم أعطيتم بالطاعة ، وحُرموا بالمعصية .
من كلامه وحكمته :

الفرصة تُخلّسه ، والحياء يمنع الرزق ، والهيبة خيبة ، والحكمة ضالة المؤمن .
إفساد الحر :

قال يوماً لابنه يزيد ، يابنى ؛ لا تستفسد الحرّ فساداً لا تُصلِّحه أبد . قال :
بماذا ؟

قال : لا تُشْتَمَنَّ له عِرضاً ، ولا تُضْرِبَنَّ له ظهراً ، فإن الحرّ لا يرى الدنيا
عوضاً من هذين !
ولكن خذ ماله ، ومتى شئت أن تُصلِّحه فمال بمال .

الصدق في بعض المواطن :

وأنى بسارق ؛ فقال : أُسرِّقت ؟

فقال بعض من حضر : اصدق أمير المؤمنين .
فقال معاوية : الصدق في بعض المواطن عجز .

من وصاياه لأحد عماله :

قال لعامل له : كل قليلاً تعمل طويلاً .

الزم العفاف يلزمك العمل .

إياك والرُّشَا يشتدّ ظهرك عند الخصام .

إياك والسلطان :

وقال لأبي الجهم : إياك والسلطان ، فإنه يَفْضَبُ غضبَ الصبي ، ويُعاقب عقوبة الأسد ؛ فإن قليله يغلب كثير الناس .

◀ معاوية وعبيد الله بن زياد :

لما مات «زياد» وفد عليه «عبيد الله» ابنه : فقال له : من استخلف أخى على عمله بالكوفة ؟

قال : عبد الله بن خالد بن أُسَيْد^(١) .

قال : فعلى البصرة ؟

قال : سُمرة بن جُندب .

فقال له معاوية : لو استعملك أبوك استعملتك !

فقال عبيد الله : أنشدك الله أن يقولها لى أحد بعدك : لو وُلّاك أبوك وعمك وليتك . فولاه خراسان^(٢) .

وأوصاه فقال : اتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً .

وَقِ عِرْضَكَ من أن تدنسه . وإذا أعطيت عهداً ففِ به .

ولا تبيعن كثيراً بقليل .

وخذ لنفسك من نفسك .

ولا يخرجن منك أمر حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُردّن عليك . وإذا لقيت عدوك فغلبك على ظهر الأرض ، فلا يغلبك على بطنها .

وإن احتاج أصحابك أن تواسيهم بنفسك فواسهم ، ولا تُطمعن أحداً في غير حقه .

(١) عبد الله بن خالد بن أُسَيْد اختلف في كونه مغزومياً أو أموياً ، ولى فارس من قبل معاوية ، واستخلفه زياد على البصرة [الإصابة : ٤ - ٦١] .

(٢) في عيون الأخبار [١ : ٢٣٠] قال له عبيد الله : لا يقولها أحد بعدك ، ما منع أباه وعمه أن يكونا استعماله .

ولا تُؤَيِّسَنَّ أَحَدًا مِنْ حَقِّ هُوَلِهِ .

إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت :

قال له ابن عباس : هل لك في مناظرتي فيما زعمت أنك خصمت فيه أصحابي ؟

فقال له معاوية : ما تصنع بمناظرتي ؟ فأشغب بك ، وتشغب^(١) لي ، فيبقى في قلبك ما لا ينفعك ، ويبقى في قلبي ما يضرك .

□ اتفاق أبويه على ما أوصياه به ! □

قدم معاوية من ولاية كان عمر ولأه إياها فبدأ بعمر - رضى الله عنه - فلما دخل عليه قال له :

متى قدمت ؟ قال : الآن . وبدأت بك .

قال : اذهب فابدأ بأبيوك ؛ فإن حقنا لم يدخل على أحدهما .
وابداً بأمك .

قال : فخرجت من عنده ، ودخلت على أمي هند ، فقالت : يا بني ؛ إنه ما ولدت حرة مثلك ، وإنك قد أنهضت فانهض ، وإن الذي استعملك قادر على أن يعزلك .

فاعمل بما وافقه ، وافقك ذلك أو خالفك .

قال : فخرجت من عندها فدخلت على أبي فقال : يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا فأساعوا سبقنا ، فرفعوا وضيعهم ، ووضعوا ربيعنا ، وصرنا أذناناً ، وصاروا رعوساً ، وقد رأيتهم ولوك جسيماً من غير حاجة بهم إليك ، ولكنه جد^(٢) وقع ؛ فاعمل بما وافقهم ، إمّا لربك ، وإمّا لهم .

(١) الشغب : تمهيج الشر وإثارة الفتن والاضطراب .

(٢) جد : خط .

وجاء في العقد الفريد قول معاوية بعد أن سمع كلاميهما : فمجبت من اتفاقهما
في المعنى على اختلافهما في اللفظ !

عطاء لا يُنسى !

قال معاوية لابن الأشعث بن قيس :
ما كان جدك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟
فقال : أعطاه مالا وظهراً ورقيقاً وأشياء أنسيئها .
فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنسى .

معاوية والخلافة :

ذُكِرَ عليّ - رضي الله عنه - في مجلس معاوية ، وعنده أهله ، فقال عنبسة بن
أبى سفيان : والله إني لأعجب من عليّ وطلبه للخلافة !
فقال معاوية - وضحك - : أما والله إنها سنة كما قال الشاعر :
وما تركته رغبة عن جماله ولكنها كانت لآخر تُخطب

معاوية وزِيَاد :

وفخر عنده سليم مولى زياد ، فقال معاوية : اسكت فوالله ما أدرك صاحبك
شيئاً بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني .

ثلاث من السُّودد :

ومن كلام معاوية : ثلاث من السُّودد : الصَّلَع ، واندحاء البطن (عظمها
واسترسالها) ، وترك الإفراط في الغيرة .

ويقول الآبى في نثر الدر : وقد عيب بهذا الكلام ، ورمى بقله الغيرة .

معاوية وعمرو بن العاص :

وقال معاوية لعمر بن العاص : يا عمرو ؛ إن أهل العراق قد أكرهوا عليّاً عليّ
أبى موسى ، وأنا - والله - وأهل الشام راضون بك .

وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ؛ فأجِدِ الحَزَّ ، وطَبَّقْ

المفصل ، ولا تلقه برأيك^(١) كله .

رجوعه إلى الحق :

قال ليونس بن سعيد الثقفى : اتق الله لا أطير بك طيرةً بطيئاً وقوعها قال :
أليس بى وبك المرجع بعدُ إلى الله ؟
قال : بلى ، فاستغفرُ الله .

أى الشعر أحب إليه ؟

قال لعبد الرحمن بن الحكم الشاعر الأموى : بلغنى أنك قد لهجت بقول
الشعر . قال : قد فعلت .

قال : فإياك والتشبيب بالنساء ، فتغر الشريفة ، وترمى العفيفة ، وتقر على
نفسك بالفضيحة .

وإياك والهجاء ؛ فإنك تُحنقُ عليك كريماً ، وتستثير سفيهاً ، وإياك والمدح ؛
فإنه طعمة الوقاح ، وتفحش السؤال .

ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الشعر ما تزين به نفسك ، وتؤدب
غيرك .

الملك بين الحزم والتوالى !

وقال لعمر بن سعيد : ليس بين الملك ، وبين أن يملك جميع رعيته ، أو
يملكه جميعهم إلا حزم ، أو تواؤن .

◀ معاوية وزيد أيهما أذهى ؟!

قيل لمعاوية : أنت أذكى (أذهى) أم زيد ؟

قال : إن زياداً لا يدعُ الأمر يتفرق عليه ، وإنه يتفرق على فأجمعه .

(١) فى العقد الفريد أن هذا القول مثل للبلغ للوجز الذى يقل الكلام ، ويصيب المعانى .

◀ معاوية وعمرو بن العاص :

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أشدَّ حبَّك للمال ! قال : ولم لا أحبه .
من السَّفَلَة^(٢) في رأيه :

وقال : السَّفَلَة من ليس له نسب معروف أو فعل موصوف .

صفات لا تجتمع في حر :

وقال : ثلاثة ما اجتمعت في حر : مباهتة الرجال^(١) ، والغيبة للناس ، والملال لأهل المروءة .

خذ فيما كنت فيه !

قدم على معاوية رجل ، فإنه ليحدثه إذ حَبَق (ضربت) ؛ فانقبض وترك الكلام من هية الموقف .

فقال معاوية : خذ فيما كنت فيه ، فما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفس !

العيال والمال :

وقال : العيال أَرْضَة المال !

معاوية والثقة بالناس :

وقيل له : ما بلغ من عقلك ؟ قال : لم أثق بأحد .

وكُلْ به من يؤدبه :

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : لا تُفْسِدْ أدبَكَ بتأديبه ، ولكن وُكِّلْ به من يؤدبه .

(٢) السَّفَلَة من الناس : هم أسافلهم وغوغاؤهم ، والسَّفَلَة أيضاً .

(١) رميهم بما ليس فيهم زوراً وبهتاناً .

النبيل عنده :

وسئل : ما النبيل ؟ فقال : الحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة .

حكيمته في رده :

قال له رجل : والله لقد بايعتك وأنا كاره . فقال : قد جعل الله في الكره خيراً كثيراً^(١) .

معاوية والنساء :

قال معاوية في النساء : إتهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللثام .

لكل شيء آفة !

قال معاوية :

آفة المروءة : الكبر وإخوان السوء .

وآفة العلم : النسيان .

وآفة الحلم : الذل .

وآفة الجود : السرف .

وآفة القصد : البخل .

وآفة المنطق : الفحش .

وآفة الجلد : الكسل .

وآفة الرزاة : الكبر .

وآفة الصمت : العي .

وآفة اللب : العجب .

وآفة الظرف : الصلف .

وآفة الحياء : الضعف .

وبعد هذه النظرات الصائبة ، والأقوال الحكيمة ، والتجارب النافعة ، يطيب لنا أن نتابع الجانب العملي .. فتعال نتعرف على البحرية الإسلامية في عهده ، وما كان لها من شأن ووجود في البحر الأبيض المتوسط !!

(١) في العقد الفريد ما يخالف رواية الآتي في نثر الدر : أباع يزيد وأنا كاره .

□ الفتوح في عهد معاوية □

السند :

غزا عبد الله بن سوار الذي كان أميراً على ثغر السند « القيقان »^(١) مرتين قتل في ثانيتهما .

وغزا المهلب بن أبي صفرة هذه الجهات ووصل إلى لاهور^(٢) .

وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب ؛ حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية لما بينها من الجوار ! فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً .

وقد بلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة افتتح بها عدة جهات منها جزيرة « قبرص » ، وجزيرة « رودس » وبعض الجزائر اليونانية ، أما في البر فقد رتب « الشوائق والصوائف »^(٣) .

□ أول عملية إبرار بحرى في تاريخ المسلمين □ (عام ٢٨ هـ . ٣٣ هـ)

كم كان معاوية بن أبي سفيان بعيد النظر شديد الوعي البحرى مؤمناً بأن السيطرة على الجزر ذات الموقع الحاكم في البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة الجانب الشرقى منه « ضرورة استراتيجية » لتحقيق السيادة البحرية للأساطيل الإسلامية . ولقد كانت « قبرص » من وجهة نظر المسلمين في الشام تشكل خطراً على الشام - خلال عمليات الفتح - باعتبارها قاعدة للبيزنطيين (الروم) في إغاراتهم

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان .

(٢) البلاذرى : فوح البلدان [ص ٤٣٨ - ٤٣٩] .

(٣) المراد بها الجيوش التي كانت تغزو هذه البلاد في الشتاء والصيف .

البحرية على الشام ، وملجأ يلجئون إليه عند ارتدادهم عنه استعداداً لمعاودة الإغارات^(١) .

فخلال سنوات الفتح الإسلامي للشام لم يجد المسلمون عدواً لهم في معاركهم أفسى من البحر ، وما يأتي منه من أخطار^(٢) .

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من نظم أسطولاً في الإسلام ، وأول من أرسل حملة بحرية إسلامية للغزو في البحر الأبيض المتوسط ، فقد استأذن الخليفة عمر - وهو يلي الشام من قبله - لكى يسمح له الخليفة بركوب البحر لاعتزاه فتح جزيرة قبرص ، ومما قاله معاوية لعمر :

«يأمر المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم ، وصياح ديوكهم أو «دجاجهم» ، وهى تلقاء ساحل من سواحل جِمْص ، فاتمه عمر ؛ لأنه المشير بذلك ، وكتب إلى «عمرو بن العاص» وإلى مصر - رضى الله عنه - :

«أن صيف لى البحر ثم اكتب إلىّ بخبره» .

فكتب إليه «عمرو بن العاص» : «يأمر المؤمنين ، إنى رأيت خَلْقاً كبيراً ، يركبه خَلْق صغير ، ليس إلا السماء !

إن رَكُن (سكن) خَرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة .

هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا بَرِق» (من الحيرة والدهشة) .

لما قرأ عمر الخطاب ما بعث به عمرو بن العاص إليه كتب إلى معاوية :

(١) مجلة الأزهر مايو ١٩٩٠ م لواء . ١ . ح محمد جمال الدين محفوظ . بتصرف .

(٢) ولقد تمهّل لنا هذا الخطر في العصر الحاضر أيام أحداث العدوان الثلاثي (الإنجليزى - الفرنسى - الإسرائيلى) عام ١٩٥٦ م حيث كانت قبرص القاعدة التى انطلقت منها أساطيل العدو وطائراته .

« لا والذي بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه (أى : فى البحر) مُسْلِماً أبداً »^(١) .

ولكن معاوية ما يزال مقتنعاً بضرورة فتح قبرص ، فليس أمامه إلا الانتظار ! وفى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ) أعاد معاوية عام ٢٧ هـ طلبه موضعاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان ، وأوصاه : « لا تتخب الناس ، ولا تُفرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » . وهنا تحققت أمنيته ، وراح يستعد لغزو قبرص .. وتحرك أسطول مشترك بين الشام ومصر تحت القيادة العامة لمعاوية ، وكانت قيادة أسطول الشام لعبد الله بن قيس ، أما أسطول مصر فكانت قيادته لعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

واحتشدت الأساطيل فى ميناء «عكا» ، وقد اشترك مع الجند عدد من كبار الصحابة من بينهم : أبو الدرداء ، وأبوذر الغفارى ، وفضالة بن عبيد ، والمقداد ابن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، الذى حمل معه زوجته «أم حرام بنت ملحان الأنصارية» وقد اصطحب معاوية معه زوجته فاختة تنفيذاً لأمر الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - حين أذن له بالغزو فى البحر بأن يأخذ امرأته : «إن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونا لك ، وإلا فلا»^(٢) .

وأبحرت الحملة البحرية الإسلامية من ميناء «عكا» فى ربيع عام ٢٨ من الهجرة إلى «قبرص» حيث قام المسلمون بأول عملية إبرار بحرى فى تاريخهم ، وبعد أن أنزلوا عدتهم وعتادهم إلى شاطئ الجزيرة أرسلوا إلى أهلها يخبرونهم بأهدافهم ، وأنهم إنما جاءوا ليتفوقوا معهم على ما فيه تأمين للشواطئ الإسلامية على المياه الشرقية من البحر المتوسط .

ولكن سكان الجزيرة تحت ضغط الروم أنبأوا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنها ، فتقدمت الجيوش نحو عاصمتهم «قسطنطينا» وحاصرتهم ، واستولوا على كنوزهم وأسروا كثيراً منهم مما اضطر حاكم العاصمة

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك [ج ٤ ص ٢٥٨ - ٢٥٩] .

(٢) البلاذرى فوح البلدان .

أو (أركونها) إلى عقد صلح مع المسلمين يحقق الأمل المرجو من غزو الجزيرة وعاد الأسطول الإسلامي إلى قواعده دون أن يترك في جزيرة قبرص حامية من القوات الإسلامية .

محاولة غزو القسطنطينية :

وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً ، وكان على الجيش سفيان بن عوف^(١) ، وقد خرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري ، وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش ؛ فساروا حتى بلغوا «القسطنطينية» ، فاقتتل المسلمون والروم ، ولم يستطع العرب فتح القسطنطينية لثانة أسوارها ، ومنعة موقعها ، وفك النار الإغريقية بسفن المسلمين .

وفي أثناء الحصار قتل «أبو أيوب الأنصاري» فدفن خارج «القسطنطينية» قريباً من سورها .

ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم وسفنهم .

غزو إفريقية :

وفي سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى «عقبة بن نافع» الذي كان مقيماً «ببرقة» و «زويلة» منذ أيام «عمرو بن العاص» عشرة آلاف جندي ، فدخل إفريقية ، وتمكن من فتحها ، وأسلم على يديه كثير من البربر .

وقد عمل العرب على إدخالهم ضمن جيوشهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام حتى اتصل ببلاد السودان كما يقول ياقوت .

وقد كون البربر نواة الجيوش التي أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ، بل ومن البربر أيضاً .

وبذلك أصبح «عقبة بن نافع» والياً على إفريقية بعد أن كانت ولايتها تابعة

(١) تاريخ الإسلام السياسي . د. حسن إبراهيم [ج ١ ص ٤٠٦] .

لولاية مصر .

تمصير القيروان :

وقد رأى عقبة - على أثر انتصاره على البربر - أن يتخذ مدينة يكون بها
عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ، فقصده مدينة
القيروان^(١) .

وأمر ببناء المدينة ، فبنيت كما بنى بها المسجد الجامع ، ولم يلبث «عقبة» أن
عزل وولى مكانه «أبو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد» الذى ولاه معاوية مصر
 وإفريقية^(٢) .



(١) مدينة مُصِرّت في الإسلام أيام معاوية .

(٢) انظر كتاب البلدان لليخوقى ، معجم البلدان لياقوت [ج ٧ ص ١٩٣ - ١٩٤] ، كتاب الولاية

للكندى [ص ٣٦]

حياته الخاصة

□ يوم من أيام معاوية !! □

ذكر المسعودى شيئاً عن حياة معاوية الخاصة وشغفه بالعلم فقال : « كان من أخلاق معاوية أنه كان يؤذن في اليوم واللييلة خمس مرات » .

كان إذا صلى الفجر جلس للقاصّ حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتي بمصحفه ، فيقرأ أجزائه ، ثم يدخل إلى منزله ، فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات .

ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي ، ثم يؤتي بالغداء الأصغر ، وهو فضلة عشاءه من جدى بارد ، أو فرخ ، أو ما يشبهه .

ثم يتحدث طويلاً ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : يا غلام ، أخرج الكرسي ، فيخرج إلى المسجد ، فيوضع ، فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسي .

ويقوم الأحداث ، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والضعي ، والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول : ظلمت ، فيقول : أعزوه .

ويقول : عديّ على ؛ فيقول : ابعثوا معه .

ويقول : صنع بي ؛ فيقول : انظروا في أمره .

حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام . فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله .

فإذا استوا جلوساً قال : ياهؤلاء ، إنما سميت أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس .

ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل ، فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده .

ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم .. أعطوهم .. اقضوا حوائجهم . اخدموهم .

ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ! ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ، فيقال : يا عبد الله ، أغقب .

فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ، ويقول للناس :

أجيزوا ، فينصرفون ؛ فيدخل منزله ، فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة . فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة ، والخشكناج^(١) ، والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد ، والكعك المنضد ، والفواكه اليابسة .

وإذا كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه ، فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ثم يخرج ، فيصلى العصر ، ثم يدخل منزله ، فلا يطعم فيه طامع ، حتى إذا كان آخر أوقات العصر ، خرج فيجلس على سريريه ، ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء ، فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادى له بأصحاب الحوائج .

ثم يرفع العشاء ، وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصلبها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات ، يقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى .

ثم يدخل منزله ، فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة ، وخاصة الخاصة ، والوزراء ، والحاشية ، فيؤامره

(١) الأخبصة : جمع خبيص . حلوى مخلوطة من الزهر والسمن .

والخشكناج : خبزة من خالص دقيق الحنطة تملأ بالسكر واللوز أو الفستق . وظل (القطائف) .

الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب ، وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيها ، وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ، ومكايدها ، وسياستها لرعيها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة .

ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة . ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكاييد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون . وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار ، وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم» .

□ معاوية في بيته □

مع زوجاته :

كان معاوية يقدم أم ولده يزيد على أم ولده عبد الله ، وقد جلس مع الثانية يوماً ، فمرت بها أم يزيد وهي ميسون بنت بجدل الكلبيّة ، فأتبعها أم عبد الله عيناها وقالت لها : لعن الله خممش ساقيك^(١) !

تقصّد بذلك ما كانت عليه «ميسون» أيام كانت تعيش في البادية وتنتقل بين الوديان بين الشيخ والقيصوم^(٢) ، فتعرض للشوك ..

فغضب معاوية وقال : أرأيت ذلك منها !؟

ف قالت : نعم !

فقال معاوية : أما والله على هذا لما انفرجت عنه ساقاها خير مما انفرجت عنه

ساقاك !

وهو يشير بذلك إلى نجابة يزيد ، وفصاحة لسانه ، وتوقد لبه ، وخمول أخيه عبد الله ، وتراخي همته عن طلب المعالي .

(١) الخمش : اسم لجرح البشرة ، وهو أثر الخمش .

(٢) الشيخ : نبت راحته طيبة ، وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية . والقيصوم أيضاً قريب من نوع الشيخ كثير في البادية .

□ معاوية وميسون* □

تزوج معاوية ميسون بنت بجدل الكلبية وهى شاعرة من شواعر العرب ، ونقلها من البدو إلى دمشق ، وأسكنها قصرأ من قصور الخلافة ، فكانت تكثر الحنين والتذكر لمسقط رأسها ، فأنصت إليها معاوية ذات يوم وهى تنشد :

لَلْبَسِ عِبَاءَةً وَتَقَرَّ عَيْنِي	أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشَّفَوفِ
وَبَيْتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحَ فِيهِ	أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفِ
وَبَكْرٍ يَتَّبِعُ الْأَطْعَمَانَ صَعْبَ	أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ زَفَوفِ
وَكَلْبٍ يَنْبَحُ الْأَضْيَافَ دُونِي	أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ هَزِّ الدَّفَوفِ
وَحَرْقٍ مِنْ بَنَى عَمَى ثَقِيفَ	أَحِبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ* عَنِيفِ

فقال معاوية : ما رضىت ابنة بجدل حتى جعلتنى عِلْجاً ، فالحقى بأهلك .
فمضت إلى كلب ، ومعها ابنها يزيد .

مع ابنه يزيد :

غضب معاوية يوماً من ابنه يزيد ، فاستدعى الأحنف بن قيس ، ثم قال له :
- ياأبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟

فقال : ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة .
فإن طلبوا فأعطهم .

وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ! ولا تكن عليهم
ثقلاً فيملوا حياتك ، ويحبوا وفاتك ! فقال معاوية : لله درك ياأحنف !
لقد دخلت على وإنى لملوء غضباً على يزيد ، فسألته من قلبى !

(*) الأغاني للأصفهاني ، وَذُرَّةُ الغرار للحريري .
(١) الطبع : كل جاف شديد من الرجال .

□ من حيل معاوية □

« كانت أرينب بنت إسحاق من الجميلات اللاتي أبدع الله خلقهن ، ولقد منحها الله - سبحانه - كما لا وما لا وشرفا ، وقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن سلام القرشي ، وكان من معاوية بن أمي سفيان بالمنزلة الرفيعة في الفضل ، ولكن يزيد ابنه كان قد وقع في حبها ، فشكا أمره إلى أبيه معاوية ، فنصحه معاوية بقوله : مهلاً يا يزيد ، فتملك يزيد العجب وقال : علام تأمرني بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل؟! فقال له معاوية : فأين عقلك ومروءتك وتفاك؟ فقال يزيد : يغلب الهوى على الصبر والحجاً!!

فلم ير معاوية بدأ من إجابة طلب ابنه يزيد في أخذ الحيلة والنظر ! فكتب إلى عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر في كتابي هذا لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه .

فشد الرحال إليه حتى أقبل عليه ، وكان عند معاوية أبو هريرة وأبو الدرداء صاحباً رسول الله - ﷺ - فأمر معاوية أن ينزل منزلاً قد هيم له ، وأعد له فيه نزله .

ثم قال لأبي هريرة وصاحبه : قد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها ، والنظر في تبعل من يريد أن يياعلها . لعل من يكون بعدى يهتدى منه بهدي ، ويتبع فيه أثرى ، فأني تخوفت أن يدعو من يلي هذا الأمر من بعدى زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم ، وألا يرون لمن فيمن ملكهن أمره كُفّاً ولا نظيراً .

وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه .

فقال أبو هريرة وأبو الدرداء : إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منا أنت صاحب رسول الله وكتابه !

فقال معاوية : اذكراله ذلك عنى ، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى غير أنى أرجو أنها لا تخرج من رأى إن شاء الله .

فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما ، دخل معاوية إلى ابنته فقال لها : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وإنكاحى إياك منه ، ودعواك إلى مباعلته ، وحضّاك على ملاءمة رأى ، والمسارة إلى هواى ، فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفء كريم ، وقريب حميم غير أن تحته أرنب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ، ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه ، فأفارق الرجاء ، وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها !

فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام ، وأعلماه بالذى أمرهما معاوية .

فلما أخبراه سر وفرح ، وحمد الله عليه ، ثم بعثهما خاطبين عليه .

فلما قدما قال لهما معاوية : قد تعلمان رضائى به ، وحرصى عليه ، وقد كنت أعلمتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها ، واعرضا عليها الذى رأيت لها . فدخلتا عليها وأعلماهما بالذى ارتضاه لهما أبوها ..

فقال لهما كالذى قال أبوها ، فأعلماه بذلك فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا أمرها ، فارق زوجته وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين إليه أيضاً .

فخطبا وأعلمتا معاوية بالذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته طلاباً لما يرضيهما وخروجاً عما يشجيهما .

وهنا أظهر معاوية كراهة لقلعه ، وقال : ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ، ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بد منه ، ولا محيص عنه ، ولا خيرة فيه للعباد ، والأقدار غالبية ، وما سبق فى علم الله جارٍ فيه ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا .

ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرنب بنت إسحاق .

فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها ، وسألاها عن رضاها تبرياً من الأمر ، ونظراً في القول والعذر ، فيقول :
لم يكن لي أن أكرهها ، وقد جعلت لها من الشورى في نفسها .

فدخلها عليها ، وأعلمها بالذي رضىه إن رضيت هي : وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرنب طلاباً لمسرتها ، وذكرها من فضله ، وكال مروءته ، وكريم محتدة .

فقال لهما : جف القلم بما هو كائن ، وإنه في قریش لرفيع ، غير أن الله - عز وجل - يتولى تدبير الأمور في خلقه ، وتقسيمها بين عبادہ حتى ينزلها منازلها فيهم ، ويضعها على ما سبق في أقدارها ، وليست تجري لأحد على ما يهوى ، ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء .

وقد تعرفان أن التزويج هزله جد ، وندم النادم عليه يدوم ، والعنور فيه لا يكاد يقوم ، والأناة في الأمور أوفق لما يخاف فيها من المقدور ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأني فيها كان المرء بحسن العزاء خليقاً ، وبالصبر عليها حقيقاً ، وعلمت أن الله ولي التدبير ، فلم تلم النفس على التقصير ، وإنى بالله أستعين سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ، ويصح لي الذي أريد علمه من أمره ومستخيرة ، وإن كنت أعلم أنه لا خيرة لأحد فيما هو كائن فعلمتكما بالذي يرينيه الله في أمره ، ولا قوة إلا بالله .

فقالا : وفقك الله ، وخار لك ، ثم انصرفا .

فلما أعلماه بقولها تمثل بقول القائل :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً للناظرين قريب !

وتحدث الناس بالذي كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته ، وقبل أن يوجد له الذي كان من بغيته ! ولم يشكوا في غدر معاوية إياه !
فاستحث عبد الله بن سلام ، أبا هريرة وأبا الدرداء وسألهما الفراغ من أمره فأتياه فقالا لها :

قد أتيناك لما أنت صانعة في أمرك ، وإن تستخيري الله يخبر لك فيما تختارين ،

فإنه يهدي من استهداه ، ويعطي من اجتداه وهو أقدر القادرين .

قالت : الحمد لله الذى أرجو أن يكون قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه فوجدته غير ملامم ولا هو بموافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من اشتترته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

فعلم عبد الله أنه خدع ، واشتد عليه الهم والحزن «^(١)» .

وهكذا يفعل الدهاء !



(١) للقصة بقية نقلها صاحب أعلام النساء عن الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى .

□ دروس في الدهاء والحلم □

◀ معاوية وأبو هرثة الباهلى :

قال معاوية لأبى هرثة الباهلى :

« لقد هممت أن أحمل جمعاً من باهلة في سفينة ثم أغرقهم !

قال أبو هرثة :

إذن لا ترضى باهلة بعدّتهم من بنى أمية !!

قال : اسكت أيها الغراب الأبقع !- وكان به برص !

قال أبو هرثة : إن الغراب ربما درج إلى الرّحمة^(١) حتى ينقر دماغها ، ويقتلع

عينها !

فقال يزيد : ألا تقتله ياأمير المؤمنين .

قال : مَهْ^(٢) .

ونفض معاوية ثم وجهه في سرّية فقتل .

فقال معاوية ليزيد : هذه أخفى وأصوب^(٣) .

◀ معاوية وعمرو :

قال معاوية لعمر : أنت أدهى أم أنا ؟

قال عمرو : أنا للبديهة ، وأنت للأناة .

(١) أورد الآبى صاحب نثر الدر باباً عنوانه : الحيل والحدائع اخبرت لك منه ما يتعلق بالدهاء الأربعة في الإسلام لتبين كيف كانوا يتصرفون في المواقف المختلفة ، وأيهم كان أكثر دهاء ؟ وعليك أن تسائل نفسك : ماذا تفعل لو كنت مكانه ؟

(٢) الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقار طويل .

(٣) مَهْ : اكفّف - اسم فعل . القاموس .

(٤) الحيوان : [٤٢٨/٣] .

قال : كلا .

قال عمرو : أذن منى رأسك أسارك .

فأدنى رأسه ، فقال عمرو : هذا من ذاك .. هل ههنا أحد غيرك !!

◀ حلم معاوية ودهاؤه :

قال قوم من قريش : ما نظن أن معاوية أغضبه شيء قط .

فقال بعضهم : إن ذكرت أمه غضب .

فقال مالك بن أسماء المنى القرشي - وهي أمه - وإنما قيل لها أسماء المنى لجمالها : والله لأغضبه إن جعلتم لي جُعلاً .

فجعلوا له جُعلاً ، وأتاه وقد حضر الموسم فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَشْبِهَ عَيْنِكَ بِعَيْنِي أَمْك !

قال : تلك عينان طالما أعجبتا أبا سفيان . يابن أخى ؛ خُذْ جُفْلَكَ ، وَلَا تَتَّخِذْنَا مَتَجَرّاً !!

ثم دعا معاوية مولاه سعداً فقال له : أَغْدِدْ لَأَسْمَاءِ الْمَنَى دِيَةَ ابْنِهَا ؛ فَإِنِّي وَاللَّهِ قَتَلْتُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي .

ورجع الغلام ، فقال له رجل منهم :

إِنْ أَتَيْتَ عَمْرُو^(١) بْنَ الزَّيْرِيرِ فَشَبَّهْتَهُ بِأُمِّهِ فَلَا ضِعْفًا جُفْلَكَ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ : يَا بَنَ الزَّيْرِيرِ ؛ مَا أَشْبِهَ وَجْهَكَ بِوَجْهِ أَمْك ! فَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَ حَتَّى مَاتَ .

فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال :

أَلَا قُلْ لَأَسْمَاءِ الْمَنَى أُمُّ مَالِكٍ فَإِنِّي لَعَمْرُ اللَّهِ أَقْتُلُ مَالِكاً^(٢)

◀ شخصية معاوية :

لم يكن معاوية رجلاً عادياً بل زعيماً من دهاة العرب ، وكان يمتاز بينهم جميعاً

(١) عمرو بن الزبير بن العوام ، كان مع الأمويين على أخيه عبد الله ، وكان مهيماً مخشياً الجانب ، ظهر به أخوه وسجنه إلى أن مات بعد سنة ٦٠ هـ . تاريخ الإسلام : [٥٤/٤] .

(٢) في المحاسن والمساويء : [٣١٣/٢] : أهلك مالكاً .

بأنه من رجال السياسة العارفين بها .

وكان حليماً لا يثور ، ولا يترك للغضب سبيلاً إلى نفسه .

وأهم ما يمتاز به معاوية أنه يفهم الطبيعة البشرية ويعامل كل إنسان وكل مجموعة بما يلائمها ، ويجاول دائماً أن يكسب الأعداء إلى جانبه بالمال والمنصب أو بغيرهما من المغريات ، فإن عجز عن استمالتهم فهو أقدر الناس على القضاء المبرم عليهم فلا تقوم لهم قائمة .

بعد كل هذا لا يبالى أى طريق يسلك في سبيل الوصول إلى أهدافه ..

وكان أكبر ما ساعده على ضبط الأمن وحسن الإدارة اعتماده على دهاة العرب أمثال « عمرو بن العاص » و « المغيرة بن شعبة » و « زياد بن أبيه » ، وكان يتألفهم ويطلب ولاءهم بشتى الطرق وليس أدل على ذلك من أنه وهب « عُمراً » خراج مصر في مقابل ما قام به من مساندة .

◀ صفات معاوية التى أهّلته للنجاح !

إن الباحث عن صفات معاوية التى أهّلته للنجاح في المنصب الكبير الذى تولاه يجد أنه كان لديه رصيد كبير ملموس من الحزم والسماحة مما لا يستغنى أى حاكم عن التحلى بهما ، فمنصب الحاكم يحتاج إلى حزم أحياناً ، وإلى سماحة أحياناً أخرى .

فقساً ليزدجروا ومن يلكُ حاً زماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ
وقد كان معاوية موهوباً في الناحيتين .

◀ نماذج من حلمه :

ومن حلمه : أنه قال يوماً لقيس بن سعد بن عباد : يا قيس ! ، والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على وأنت حى !
فأجاب قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين !

فلم يقل له شيئاً!!، ولكننا لا ينبغي أن يملكنا العجب .. أليس هو القاتل :
إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي .. ولا أضع سوطي حيث يكفيني
لساني !

ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت .. كانوا إذا شدوها أرخيتها .. وإذا
أرخوها شددتها » .

◀ فلسفة معاوية في معاملة الخصوم :

ويروى المبرد في «الكامل» فلسفة معاوية في معاملة خصومه فيقول :
«إني لا أحمل السيف على من لا سيف له !
وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها مُشتَفٍ جعلتها تحت قدمي ، ودَبرُ أذني»^(١) .
ووصفه عبد الله بن عباس فقال :

ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة !
ومر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية ، فأكثر الترحم عليه .
ف قيل له : قبر من هذا ؟

فأجاب : «قبر رجل كان - والله - ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم .
كان إذا أعطى أغنى ، وإذا حارب أفنى»^(٢) .
ويروى عن معاوية قوله :

«إني لأرفع نفس عن أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكثر من
علمي ، أو عورة لا أداريها بسترى ، أو إساءة أكثر من إحساني»^(٣) .
وقوله : ما من شيء ألد عندي من غيظ أنجرعه

◀ مبتكرات معاوية في خلافته :

وقد ابتكر معاوية في خلافته أشياء لم يُسبق إليها :

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد .

(٢) الفخرى لابن طباطبا [ص ٩٥ - ٩٦] .

(٣) الطبري [ج ٤ ص ٢٤٨] .

- * فهو الذى أمر أن ترفع الجِراب بين يديه .
- * وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته !
- وقد كان ذلك بسبب قتل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وهما يصليان^(١) .
- * ومن مبتكرات معاوية ترقية نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحداً منها ، ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى ، فيستبدل به غيره ، ويتركه ليسترخي .. وهكذا !
- * وأنشأ كذلك ديوان الخاتم^(٢) .

□ معاوية يطلب من ضرار وصف عليّ □ ويستزيده كل ما وعاه من كلامه !

يحدثنا المسعودى فى «مروجه» عن ذلك فيقول :

دخل ضرار بن ضمرة - وكان من خواصّ على - على معاوية وافداً ، فقال له : صف لى عليّاً .

قال : أعفنى ياأمير المؤمنين .

قال معاوية : لا بد من ذلك .

فقال : أما إذا كان لابد من ذلك ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً .

يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه !

(١) الطبرى [ج ٤ ص ٩٤]

(٢) الطبرى [ج ٤ ص ٩٤] ، وصبح الأعشى [ج ١٤ ص ٣٦٨] ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى [ص ٢٠٠] .

يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر .
وكان - والله - يجيبنا إذا دعواناه ، وكنا - والله - على تقريره لنا وقربه منا -
لا نكلمه هبة له ، ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا .
يسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم .
يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين .
ويطعم في المسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة يكسو العريان ، وينصر
اللفهان .

ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته .
وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو في محرابه ، قابض
على لحيته ، يتململ تلمل السليم^(١) ، ويكي بكاء الحزين ، ويقول :
يادنيا غرى غرى !! ، ألى تعرضت ؟ أم إلى تشوّفت ؟ !
هيهات هيهات !! .. لا حان حينك ، قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك ..
عمرك قصير ، وعيشك حقير .. وخطرك يسير .
آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !!
فقال معاوية : زدنى شيئاً من كلامه . ويواصل ضرار حديثه حتى إذا توقف
قال معاوية : زدنى كل ما وعيته من كلامه .
فيقول ضرار : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته !
وهكذا كان معاوية كالإسفنجة يمتص الآراء والأفكار من كل نبع !!



(١) السليم : اللدوغ .

□ ماذا كان موقف الناس من معاوية ؟! □

ولقد وقف الناس منه بين مادح وقادح !

وقد ألف ابن حجر الهيتمي كتاباً سماه : « تطهير الجنان واللسان عن التفوه بتَلْب سيدنا معاوية بن أبى سفيان » ومن ثقة المؤلفين أبو بكر بن العري الذى ألف كتاباً سماه : « العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة » .

براً فيه معاوية ، ودافع عنه فى غير إسراف ولا غلو كما فعل ابن حجر .
ومهما يكن من شىء فإن معاوية قد شغل حِقْبة تاريخية من أَجَل الحقب ،
وأغناها بالحوادث والأخبار !

لقد كان معاوية رجلاً دنياً ، والرجل الذى يحب الدنيا يحتال لها ، فى غير يأس ولا ملل إن فاتته حيلة ، التفت يُدبّر حيلة أخرى !

وإنه ليسيطر علىّ فى إعداد هذا الكتاب قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤١] .

ومن أجل هذا حرصت كل الحرص ألا أكون قاضياً أحكم لهذا أو ذاك ، فتلك الفتنة الكبرى قال فيها مشايخنا : إنها : « فتنة طهر الله منها سيوفنا أفلا نُظهِر منها أَلْسِنَتنا ؟! » . لم يبق إذن إلا أن أَجْلَوْ صورة « معاوية » فى مرآة بعض المؤرخين والكتاب بحثنا عن مقومات شخصيته التى انتصر بها وقاد المسيرة ، وأوهاا الدهاء !!



□ معاوية في مرآتهم ! □

* قال ابن عباس :

« ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية ! »^(١) .

* ويقول البغوى :

« كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال : هذا كسرى العرب ! »

وذكر ابن سعد عن المدائنى قال :

* نظر أبو سفيان إلى معاوية وهو غلام فقال :

إن ابنى هذا لعظيم ، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومَه فقط ؟!

ثكلته إن لم يسُدَّ العربَ قاطبة !!

* وقال المدائنى : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي ؛ وكان معاوية يكتب للنبي - ﷺ - فيما بينه وبين العرب .

□ معاوية من وجهة نظر عمر الرجل الأقوى !! □

لما عزل عمرُ بن الخطاب شُرَحْبِيلَ بن عبد الله^(٢) ، واستعمل معاوية بن أبى سفيان مكانه ، جاء شُرَحْبِيلُ ، وقال له : عن سُحُطِ^(٣) عزلتنى يأمرُ المؤمنين !!؟ قال : لا إنك لكما أحبُّ ، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل !

(١) أخرجه الطحاوى في الدلائل ، وفي تاريخ البخارى ، عن معمر عن همام بن منه .
(٢) هو الصحابى الجليل شرحبيل بن حسنة - وهى أمه - واسم أبيه عبد الله . أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة هو وأخوه ، وكان من وجوه قريش ، وكان والياً على الشام لعمر ، وتولى سنة ١٨ هـ أمد الغابة .

(٣) السُّحُطُ والسُّخَطُ : الكرامة وعدم الرضا .

فقال شرحبيل : قُمْ فاعْذُرْنِي^(١) في الناس ، لا تدركني هُجْنَةٌ^(٢) !
فقام عمر في الناس خطيباً فقال : «أيها الناس ، إني - والله - ما عزلت
شَرْخِبِيلَ عَنْ سَخَطَةٍ ، ولكنني أردت رجلاً أقوى من رجل» .

□ معاوية في مرآة عمرو بن العاص □

لا يعرف «الداهية» إلا «الداهية» ، فإذا ما وصف عمرو بن العاص
معاوية ، فإنه يكشف لنا عن لون من دهائه .

روى المجاحظ في «البيان والتبيين» قال :

قال عمرو بن العاص : ما رأيت معاوية قط متكئاً على يساره ، واضعاً
إحدى رجليه على الأخرى ، كاسراً إحدى عينيه يقول للذي يكلمه :
يا هَنَاة^(٣) ! ، إلا رحمت الذي يكلمه !!

◀ رأى مؤرخي العرب في معاوية :

كان معاوية داهية من دُهاة العرب ومن أوفرهم حظاً في السياسة ، وفي ذلك
يقول صاحب الفخرى^(٤) :

كان معاوية عاقلاً في دنياه ، لبيباً ، عالماً ، حليماً ، ملكاً قوياً جيد السياسة ،
حسن التدبير لأمر الدنيا ، عاقلاً حكيماً ، فصيحاً ، بليغاً ، يحلم في مواضع
الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً
للمال ، محباً للرياسة ، مشغولاً بها ، كان يُفَضِّلُ على أشراف رعيته كثيراً ، فلا

(١) أى أظهر عذري بين الناس ، وبينهم أنه لم يكن عزلي بسبب ارتكابي ما يشين .

(٢) لا يلحقني عيب ومرة .

(٣) ياهانة ! كلمة كانت العرب تقولها عند إرادة التكبر ، كأنها تقول : ياهيء .

والهناة : كتابة عن الرجل . يقال : ياهانة أقبل . وياهانة أقبل . ولا يستعمل إلا في النداء .

(٤) الفخرى [ص ٩٩ - ١٠٠] .

يزال أشراف قريش - مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب - رضى الله عنهم - يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلوات الجمّة .

وقد وصف لنا « معاوية » الأستاذ نيكلسن في كتابه : تاريخ العرب الأدبى في تلك العبارة : « كان معاوية سياسياً محنكاً لا يقل عن ريشيليو ، فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة في جميع الأحزاب المعارضة له .

وقد آتت هذه الصفات أكلها طوال خلافته ، فيها استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة ، والخوارج خاصة وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير .

وبذلك أصبح - على ما ذهب إليه صاحب الفخرى - خليفة العالم ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة^(١) .

□ تقييم عهد معاوية أميراً وخليفة □

يقول ابن تيمية في منهاج السنة :

« إن معاوية بقى في الشام عشرين سنة أميراً ، وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم ، وتأليفاً لقلوبهم حتى قاتلوا « على بن أبي طالب » ، وصابروا عسكره^(٢) إلى أن قاوموهم وغلبوهم ، قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر على فيهم ظلمة معتدون عليهم ، كما اعتدوا على « عثمان » ، وأنهم يقاتلون دفعاً لصياهم ، وقاتل الصائل جائز ؛ ولهذا

(١) الفخرى : الآداب السلطانية [ص ١٠٠] .

(٢) صابره مصابرة وصباراً ؛ غالبه فى الصبر ، ولى التزليل العزيز : ﴿ اصبروا وصابروا وربطوا ﴾ .

لم يبدءوهم بقتال حتى بدأهم أولئك .

ولهذا قال الأشتر النخعي :

إنهم ينصرون علينا ؛ لأننا بدأناهم بالقتال ، وعلىّ كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرية ، ولم يكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به ، وأعوان معاوية يوافقونه » ا . هـ

□ أهل البغي والسيف الذي سئل عليهم ! □

يقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه : الإسلام والحضارة العربية :

لا جرم أن علياً اضطرت له الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين ، وعمل ما عمل وهو كاره ، ولم يواته الحظ في خلافته وكاد تفكيره ينحصر في ردّ المطالبين بدم عثمان ، والناشزين على خلافته من الخوارج ، وأهل الشام وغيرهم ، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل «عثمان» ، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تشتت في الأهواء ، وتأصل في الأحقاد التي انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد ، وما كان له مفرع غير السيف ، والسيف لا تؤمن غائلته على الغالب والمغلوب ، وهو شر لا بد منه !!

ولقد قالوا : إن في القرآن أربعة سيوف^(١) :

١ - سيف على «المشركين» حتى يسلموا أو يؤسروا ﴿فَإِذَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ [محمد : ٤] .

٢ - وسيف على «المنافقين» وهو سيف «الزنادقة» وقد أمر الله بجهادهم ، والإغلاظ عليهم في «سورة براءة» ، و «سورة التحريم» و «آخر سورة الأحزاب» .

٣ - وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية .

٤ - وسيف على أهل البغي وهو المذكور في «سورة الحجرات»^(٢) .

(١) الحكم الجديدة بالإذاعة لابن رجب .

(٢) في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات : ٩] .

ولم يسئل الرسول - ﷺ - هذا السيف في حياته ، وإنما سله على - رضى الله عنه - في خلافته ، وكان يقول : أنا الذى علمت الناس قتال أهل القبلة . وله - ﷺ - سيوف أخر منها .

٥ - سيفه على أهل الردّة ، وهو الذى قال فيه : «مَنْ بَدَلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١) . وقد سله أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب .
٦ - ومنها سيف على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج ، وروى عن على أنه - ﷺ - أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين^(٢) .
وقد حرق على طائفة من الزنادقة ، فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار ! ، فقال على : «ويح ابن عباس لبحات عن الهنات !» .

□ محاولة لإنهاء الصراع ! □

يقول المؤرخون : إن ثلاثة من غلاة الخوارج المتورين اجتمعوا ذات يوم فتذاكروا القتل من رفاقهم ، وتذاكروا القتل من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة : وهم ؛ على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمر بن العاص !

قال عبد الرحمن بن ملجم أحد الثلاثة : أنا أكفيكم على بن أبى طالب .
وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .
وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد !
فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة ، فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجه بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله .

(١) الطبراني في الأوسط عن أبى هريرة وإسناده حسن ، وعن معاوية بن حيدة ورجاله ثقات [٢٦١/٦] .

(٢) أحمد [٢١٧/١ ، ٤٢٨٢/١ ، ٤٢٣١/٥] .

فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجه . وأمر بقتله .

وأما « معاوية » فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة ، فوقعته الضربة على أليته .

وقيل : إن الطعنة المسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار ، أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : فى يزيد وعبد الله ما تَقَرُّ به عيني ، وأمر بالرجل فقتل لحينه .

وأما عليّ فضربه ابن مُلجَم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يابنى عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين .. قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى » .

.. انظر يا حسن ! إن أنا مت من ضربته هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ؛ فأنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور »^(١) .



(١) لم أقف عليه فيما بين يدي من مراجع !

معاوية وولاية العهد

□ درس في الدهاء لولي العهد ! □

كتب ابن الزبير إلى معاوية :

قد علمت أني صاحب الدار ، وأني الخليفة بعد عثمان ، ولأفعلن ولأفعلن ،
ولأفعلن !

فقال معاوية ليزيد : ماترى ؟!

قال : أرى - والله - أن لو كنت أنت وابن الزبير على سَوَاءٍ ، ما كان ينبغي أن
ترضى بهذا !

قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن توجه إليه جيشاً .

قال : إن أهل الحجاز لا يُسلمونه ، فكم ترى أن أوجه إليه ؟

قال : أربعين ألفاً .

قال : لهؤلاء دواب ، وكل دابة تحتاج إلى مِخْلَاة ، فكم ثمن المِخْلَاة ؟

قال : درهم .

فقال : هذه أربعون ألف درهم .

ثم قال : يا غلام ؛ اكتب إلى ابن الزبير : قد وجّه إليك أمير المؤمنين ثلاثين ألفاً
فاستمتع بها إلى أن يأتيك رأيي ..

فكتب إليه ابن الزبير : قد وصل إلينا المال ، فوصل أمير المؤمنين .رحمأ !

فقال معاوية ليزيد : قد ربحنا على ابن الزبير في المِخْلَاة عشرة آلاف !!

□ الداء والدواء .. ودرس آخر في الدهاء !! □

كان لعبد الله بن الزبير أرضٌ قريبةً من أرض معاوية فيها عبيدٌ له من الزنوج يعمرونها ؛ فدخلوا في أرض عبد الله !

فكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد : فإنه يامعاوية ، إن لم تمنع عبيدك من الدخول في أرضي ، وإلا كان لي ولك شأن !

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه ، قال له : ما ترى ؟!

قال : أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده ، وآخره عندك يأتونك برأسه ! فقال : يابني ، عندي خير من ذلك . عَلَيَّ بدواةٍ وقرطاس ؛ وكتب : وقفت على كتابك يابن حوارٍ رسول الله - ﷺ - ، وساءني - والله - ما ساءك ، والدنيا هيئة عندي في جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسي رقماً بالأرض والعبيد ، وأشهدت عليّ فيه ، ولتُضِفَ الأرضَ إلى أرضك ، والعبيدَ إلى عبيدك . والسلام .

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية ، كتب إليه :

وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - فلا عُدم الرأي الذي أحلّه من قریش هذا المحل . والسلام .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله أعطاه ابنه يزيد ، فلما قرأه ، اصفرَّ وجهه ؛ فقال له معاوية :

يابني ، إذا رُميت بهذا الداء ، فداؤه بهذا الدواء !!

إنه الدهاء !! لقد دفع معاوية الكتاب إلى يزيد ، ليرى رجحان عقله ، وحسن تدبيره في علاج معضلات الأمور ، وليس هذا بغريب من معاوية وهو من هو سياسةٌ ودهاءٌ !!

ألم يقل : لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقليل له : وكيف ذلك ؟

قال : كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ، وبهذا الدهاء ، كان له الغلب ، وآلت إليه الخلافة بعد علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - ، وكان عبد الله بن الزبير سمحاً كريماً ، حين قبل العذر ، وهذا ما يجب أن يكون بين الناس فيما يحدث من أمور يسهل معالجتها ، فلا يأبى ذلك إلا لثيم .

ترى هل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يختصمون في الريف على قيراط من الأرض قبل أن تسال لذلك دماء ، وتزهرق أرواح ؟!

وهل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يثيرونها حرباً شعواء على الحدود ؟! من جهلنا نخطيء ، ومن أخطائنا نتعلم ؛ فهل آن الأوان لكى نتعلم ؟! إنه الدهاء !! كم داوى من أدواء !!

◀ ولاية العهد ليزيد :

أول ما يطراً ببال الباحث ذلك السؤال : كيف بدأت الفكرة ؟
ولا شك أن معاوية طرأ له هذا الخاطر وتمناه لكنه لم يكشف عنه إلا حين نضجت الفكرة وهياً لها العقول والقلوب .

يقول التاريخ : كان « المغيرة بن شعبة » أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ؛ فعندما أراد معاوية أن يعزل المغيرة عن الكوفة سنة ٥٦ هـ بعد أن كبرت سنه ، ويستعمل عليها سعيد بن العاص ، وبلغ الخبر المغيرة استخدم دهائه ، فذهب إلى الشام وقابل « يزيد بن معاوية » ، وقال له :

إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي - ﷺ - وآله ، وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقى أبنائهم ، وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة .
قال : « أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم ! » .

ولما اختمرت الفكرة عند « يزيد » أعلم أباه بها ؛ فأحضر معاوية المغيرة ، وسأله عن هذا الأمر ، وما قاله يزيد ؛ فقال له : ما يقول يزيد ؟!

فقال : يأمر المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد « عثمان » ، وفي « يزيد » منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان

كهفاً للناس ، وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟

قال : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة !
وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك^(١) .

عند ذلك انشرح صدر معاوية للفكرة ، ورد المغيرة بن شعبة إلى الكوفة ، وعدل عن عزله ، وطلب منه أن يمهد لهذا الأمر ، فعاد إلى الكوفة ، وحجب إلى الناس هذا الأمر ، فبايع أنصار الأمويين ليزيد ، وأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية ، فزينوا له البيعة ليزيد ، وطلبوا منه أن يعهد إليه ، وبذلك قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد .

◀ موقف زياد :

ولكن «زياداً» عندما أرسل إليه معاوية بهذا الشأن ، نصح له بالترث في هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة في يزيد ، وقال : «ويزيد صاحب رَسَلَة^(٢) ، وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد» .

وعاد الرسول إلى دمشق فأخبر «يزيد» برأى «زياد» فيه ، فكف عن كثير مما كان يصنع .

وتأثى معاوية في هذا الأمر عملاً بمشورة زياد .

◀ استطلاع رأى أهل المدينة :

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : «إني قد كبرت سنى ، ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون عليك»^(٣) .

عرض «مروان» الأمر على الناس فوافقوا ؛ فأخبر معاوية بموافقتهم على المبدأ .

(١) ابن الأثير [ج ٣ ص ٢١٤] .

(٢) الرَسَلَة : مؤنث الرُّسل وهو اللين والاسترخاء .

(٣) ابن الأثير [ج ٣ ص ٢١٥] .

وهنا أرسل معاوية إلى « مروان » كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه « يزيد » ؛
فقرأه على الناس في المسجد ، فهاج القوم وماجوا !!

فقال عبد الرحمن بن أبي بكر :

« ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما
مات هرقل قام هرقل » .

وقام الحسين بن علي ، فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن الزبير^(١) .

◀ ظهور حزب المعارضة الذي أنكر البيعة ليزيد :

ظهر حزب المعارضة الذي أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبي
بكر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير .

على أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة ، وكتب إلى عماله أن يهدوا لبيعة يزيد في
الأنصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة .

وقد تكلم في هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهري ، ودعا لبيعة يزيد ،
وتحقت سياسة معاوية ، فأعلن البيعة لابنه بعد ما خطبهم معاوية ، والضحاك بن
قيس وغيرهما في تعظيم الإسلام ، وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة ،
وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة المسلمين !

◀ أثر هذه السياسة :

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة ، فقد انبرى له
رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى في الحق لومة لائم ألا وهو الأحنف بن قيس
فقال :

نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد في
ليله ونهاره ، وسره وعلايته ، ومدخله ومخرجه .

فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضاً فلا تشاور فيه .

وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما

(١) ابن الأثير [ج ٣ ص ٢١٦] .

علينا أن نقول : « سمعنا وأطعنا »^(١) .

على أن معاوية استعمل كل أنواع الحيل والدهاء . وكان « يعطى المقارب ، ويدارى المباعد ، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس » . وبايعوا ابنه يزيد .

◀ سير معاوية إلى المدينة :

فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه يزيد ، فقابلته الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فأساء وفادتهم . ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها ، وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد ، فنصحت له أن يرفق بهم ، ويحسن معاملتهم ، فقبل النصيحة .

ثم عاد معاوية إلى المدينة ولقى عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين ابن علي ، وأغدق عليهم الهبات ، وتكلم معهم في شأن البيعة ، فقال ابن الزبير : « نُخيرك بين ثلاث خصال . قال : اعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ - ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر .

قال معاوية : ما صنعوا ؟

قال : قبض الرسول ﷺ - ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر . قال : ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأخاف الاختلاف قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بنى أبيه فاستخلفه .

وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ، ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟

قال : لا . ثم قال : فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله^(٢) .

قال : فإنني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب

(١) ابن الأثير [ج ٣ ص ٢١٦] .

(٢) وجاء في رواية سعيد بن جبير أنه لما حج وذكر بيعة يزيد اجتمع الناس غير أربعة فلما تكلم ابن الزبير قال معاوية : تسمعون لي وتطيعون ؟ قالوا : نعم ، فخطب فقال : إن هؤلاء القوم قد بايعوني على ما أردت ، ثم انحدر فركب رواحله وانطلق فحسب الناس أنهم قد بايعوه !

منكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رعوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفيح ، وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليّ كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا ييقن رجل إلا على نفسه ؛ ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمة تصديق أو تكذيب ، فيضرباه بسيفهما .

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وأنهم قد رضوا ، وبايعوا ليزيد ، وبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ، ثم انصرف إلى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر ، فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعصيتم ، وبايعتم ؟ قالوا : والله ما فعلنا .

فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟

قالوا : كادنا ، وخفنا القتل^(١) .

هكذا بايع الناس «يزيد» عدا هؤلاء النفر ، فقسا معاوية عليهم قسوة شديدة ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .



(١) ابن الأثير [ج ٣ ص ٢١٧ - ٢١٨] .

□ معاوية والشعراء في ولاية العهد ! □

جارى الشعراء السياسة في تقلبها ودهائها ، فأيدوا الخليفة في استخلاف من يليه .

ولما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد تهيب ، وخاف ألا يرضاه الناس ، لأن فيهم من هو خير منه .

وبلغه في ذلك كلام كرهه من سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وعبد الله بن عامر .

فأوعز هو أو ابنه «يزيد» إلى «مسكين الدارمي» أن ينتهر اجتماعهم عند معاوية هم وأشراف بنى أمية ، ويذكر بيعة يزيد ويؤيدها ، فلما اجتمعوا في مجلس معاوية سنة ٥٦ هـ دخل مسكين الدارمي على معاوية ، ويزيد عن يمينه ، وبنو أمية حواليه ، وأشراف الناس في مجلسه وقال^(١) :

من الناس أحمى عنهم وأذود
ومروان أم ماذا يقول سعيد؟
ييوئها الرحمن حيث يريد
فإن أمير المؤمنين يزيد
لكل أناس طائر وجود
وفود تساميا إليك وفود
تشيّد أطناباً له وعمود
أناف كأمثال الرئال رُكود

إن أذع مسكيناً فإني ابن مَعشَر
ألا ليت شعري ما يقول بن عامر
بنى خلفاء الله مهلاً فإنما
إذا الميئّر الغريبى خلاه ربه
على الطائر الميمون والجّد صاعد
فلازلت أعلى الناس كعباً ولا تزل
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً
قدور ابن حَرْب كالجواى وتحتها

* * * *

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ، ونستخير الله . ولم يعارض أحد من الحاضرين !
ثم وصل معاوية ويزيد مسكيناً وأجزلا له الصلة .

□ خطبة معاوية في مبايعة يزيد □

ويتجلى دهاء معاوية أيضاً في خطبته التي أخذ فيها البيعة لابنه يزيد عندما وفدت إليه وفود الأمصار سنة ٥٩ هـ بناء على دعوة منه وجهت إليهم .
فتراه يمهّد لإعلان البيعة بأسباب توهم أنه لا يتغنى منها إلا صالح الشعب ؛ لأنه قد أحس ضعفه ، وأحس أن أجله قريب ، ومن أجل هذا فهو لا يريد أن يترك المسلمين بدون أن يستخلف عليهم ابنه يزيد ! ونراه يُردّ مسبقاً على من قد يسأله : لماذا لم تذهب إلى الحفل : الحسن والحسين ؟! فيقول : إنه يعلم أنهما ولداً على ، ولن تطيب نفسيهما بهذه البيعة ، وليس من اللائق أن يدعوهما لهذا الشأن على الرغم من حبه لهما وثقته بهما ويختم خطبته بمطالبتهم أن يوافقوه ، وها هي ذى خطبته :
قال معاوية :

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .
أما بعد ، فإني قد كبر سنّي ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أذعى فأجيب .

وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيتكم لكم رضاً ، وأنتم عاباهلة^(١) قريش ، وخيارها ، وأبناء خيارها ! ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيي فيهما ، وشديد محبتي لهما ! فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله ! » .

(١) المراد : سادة مقرّون على سيادتهم .

□ نهاية كُلِّ حَيٍّ □

لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟

قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك !

فقال : ويحك ، ولم ؟ قال : لا أدري .

قال : فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا فحمد الله

وأثنى ، ثم قال :

«أيها الناس ، إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ، وزمن شديد ، يُعَدِّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوًّا .

لا نتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا ، فالتاس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفره .

ومنهم المصلت بسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بشرّه ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه لحطام يتتهزه ، أو مقنب يقوده ، أو منبر يقرعه ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، فقد طامن من شخصه ، وقارب خطوه ، وشمّر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ سر الله ذريعة للمعصية .

ومنهم من قد أقعده عن الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، لقصرت به الحال عن أمله ، فتحلى باسم القناعة ، وترزين بلباس الزهد ، وليس من ذلك فى مَراجٍ ولا مَغْدَى .

وبقى رجال غض أبصارهم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المحشر ؛
فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع ، وسائق مكلوم ، وداع مخلص ، وموجع
ثكلان !

قد أخلتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم بحر أجاج ، أفواههم ضامرة ، وقلوبهم
قرحة .

قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذلّوا ، وقتلوا حتى قلّوا .
فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة .

واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من كان بعدكم ، فارفضوها ذميمة ،
فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم .



□ وصية معاوية بن أبي سفيان □

لما حضرت معاوية الوفاة سنة ٦٠ هـ ، ويزيد غائب ، دعا معاوية مسلم بن عقبة المرثي ، والضحّاك بن قيس الفهري فقال^(١) : أبلغا عني يزيد ، وقولا له :
● انظر إلى أهل الحجاز ، فهم أصلك ، وعثرتك ، فمن أتاك منهم ، فأكرمه ، ومن قعد عنك ، فتمهّذه .

● وانظر إلى أهل العراق ، فإن سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم ؛ فإن عزل عامل أهون عليك من سلّ مائة ألف سيف ، لا تدرى على من تكون الدائرة !

● ثم انظر إلى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ؛ فإن رآبك من عدوك ربّ فارمه بهم ! ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم .
لست أخاف عليك إلا ثلاثة :

«الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر !
فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .
وأما الزبير ، فإنه خبّ ضبّ^(٢) ، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً .
وأما ابن عمر فإنه رجل قد قرقره الورع فخلّ بينه وبين آخرته يُخلّ بينك وبين دنياك»^(٣) .

وهي وصية تدل على سداد رأيه ، وخبرته بالأمر ، ومعرفته بالرجال !

(١) البیان والتبيين للجاحظ .

(٢) الحب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه [ج ٣ ص ١٣١ - ١٣٢]